ألعاب بريئة

أدب إسباني حديث

ريكاردو جوميث

ترجمة

أسماء جمال عبد الناصر/محمد مهدي

رواية

مكتبة

المحروسة

ألعاب بريئة

ريكاردو جوميث

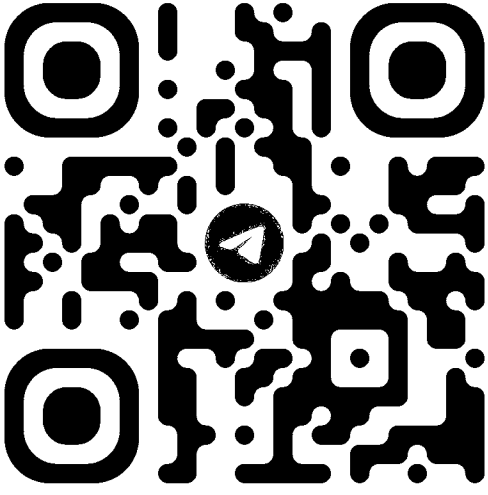

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

عنوان الكتاب: ألعاب بريئة Juegos, inocentes juegos
المؤلف: ريكاردو جوميث Ricardo Gómez
ترجمة: أسماء جمال عبد الناصر
محمد مهدي
مراجعة لغوية: شيرين يونس
إخراج داخلي: رشا عبدالله

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٤٦٢٦/ ٢٠٢٣
الترقيم الدولي: 978-977-313-975-9

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2024

Original Title: "Juegos, inocentes juegos".
Author: Ricardo Gómez.
© EDITORIAL LUIS VIVES, España, 2013.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ألعاب بريئة

ريكاردو جوميث

ترجمة

أسماء جمال عبد الناصر

محمد مهدي

رواية

مركز المحروسة
للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

الطبعة الأولى 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

جوميث، ريكاردو
ألعاب بريئة: رواية/ ريكاردو جوميث؛ ترجمة أسماء جمال عبد الناصر، محمد مهدي.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023
195ص؛ 14.5×21.5 سم
تدمك 978-977-313-975-9
1 -القصص الاسبانية
أ- عبد الناصر، أسماء جمال (مترجم)
ب - مهدي، محمد (مترجم مشارك)
ب- العنوان
863

رقم الإيداع 2023/14626

1

في العالم الواقعي اسمي سِباستيان، دون شدة على النون، قليلون من يستخدمون هذا الاسم، لكن عددًا أكبر يعرفني باسم (القاتل)، ليس لحبي الشديد له، لكنَّ الأوان قد فات على تفادي الأمر. من يناديني بسِباستيان يظن أنني لطالما كنتُ ولدًا صعب المِراس. يُعزي معلميَّ ذلك إلى انفصال أبي وأمي وموت أختي وإلخ إلخ إلخ، موضوعات على هذه الشاكلة، كلام فارغ، ولكني أعترف أنني اتَّكأت عليه أحيانًا. الآن يقِل نفعه تدريجيًّا، ينتظر العالم كله ممن يبلغ سبعة عشر عامًا أن يتعقَّل، يتعقَّل.. يا له من غباء. مَن يعرفونني باسم القاتل يقولون إنني ماهرٌ فيما أفعله، ماهر جدًّا، وإنَّ ذاك الاسم بالنسبة إليَّ كخاتمٍ في إصبعي. في الواقع لا أمارس القتل دومًا، ولكن هناك [1](nicks) غرائبية كبعض أنواع العلكة التي حينما

(1) التزمت الترجمة باللفظ الإنجليزي المكتوب في النص الإسباني الأصلي، الذي يعني اللقب أو اسم الشهرة، وبالمثل أغلب الألفاظ الواردة باللغة الإنجليزية لمقاربة وقع الأصل إلى القارئ. (المترجمان)

تخرجها من فمك لتلقيها في سلة المهملات تلتصق بأصابعك، قرف، لكن من السهل نزع علكة لزِجة عن نزع سُمعة معينة لحقت بك، خاصة إن تلخَّصت في كلمة واحدة مميزة صوتيًّا. لم يسموني (Killer) بل (Assassin)، التي يستدعي صوتها طريقة الثعابين في القتل، لأنهم يقولون إنني باردٌ وغامضٌ، إلى هذا الحد يلائمني ذلك اللقب. الأمر كما يحدث في المدرسة: يقع الناس في الفخ بسهولة. إذا كنتَ مشهورًا بشيء ما، رغم كونه شيئًا سلبيًّا، فمن الأفضل أن تستغله لصالحك، وهذا أمرٌ بسيطٌ ما دامت جبهتك لا تقل عن إصبعين[1]. لا أجرؤ على الاعتراف لأمي بأنني أُعرَف بـ(القاتل)، ستحزن المسكينة؛ هو شأن أخلاقي بالنسبة إليها، أتفهَّم ذلك. على الرغم من أنها لا تذهب إلى الكنيسة أو ما شابه من قصصٍ مملَّة، فهي متدينة على طريقتها، وترى أن هناك أشياء حسنة وأخرى ليست كذلك، والقتل دائمًا عمل سيئ وإن كان في ألعاب الڤيديو. اليوم، على سبيل المثال، كنَّا نتناول العشاء وامتعضَت حين ردَّت على الهاتف وأعطتني إياه، "إنها (تلك)"، قالتها بأسلوبٍ جافٍّ، على الرغم من عدم معرفتها بمن أُهاتف على الجانب الآخر (ولا أنا أيضًا في الواقع)، فهي تعرف لماذا يكلمونني، وهذا لا يعجبها؛ تظن أنهم سيفسدونني أو شيئًا كهذا. تعتبر المال الذي أحصل عليه سهلًا للغاية، ولا بدَّ أن وراءه شيئًا خفيًّا. أحيانًا تلقي عليَّ خُطبًا هادفة تخص دعارة الأطفال والاحتيال عبر الإنترنت أو العجائز الذين انتهى بهم الحال في السجن بتهمة التجسس عبر أجهزة كمبيوتر بعيدة، وأشياء تسمعها من هنا وهناك. تخاف أن تأتي الشرطة للبحث عني يومًا ما،

(1) تعبير يرجع إلى القرن التاسع عشر حينما حاولتْ بعض النظريات العلمية الربط بين شكل وعرض الجبهة ونسبة الذكاء، جاعلةً مساحة إصبعين هي الحد الأدني لنسبة ذكاء الشخص الطبيعي. (المترجمان)

أو أن يكون المال الذي أحصل عليه آتيًا من تجارة المخدرات... مَن يعرف ما يدور في ذهنها من أوهامٍ.

ما تعرفه هو أنه بعد أن تهاتفني (تلك) بقليلٍ، أنعزل في غرفتي، ويُحظر عليها الدخول. لا يعجبها الأمر، رغم دعوتي إليها أحيانًا لتجلس معي كي تهدأ ولو مرة.

قلت لها ذلك خاصة في آخر خمسة عشر يومًا؛ إذ كنت أجرِّب (درونز)[1]، ولم يتحتم عليَّ إطلاق نار أو شيء من هذا القبيل. اليوم حدَّدوا لي موعدًا في الحادية عشرة ولن أدعوها؛ لن يروقها مشاهدة ما سأفعل، لن يعجبها كيف أبدأ بكتابة لقبي: A-S-S-A-S-S-I-N وبعدها كلمة مروري، وسوف تستنكر أكثر وأكثر ما سيأتي لاحقًا.

بعد إغلاق الهاتف رجعت إلى المنضدة، وقلت لها ما قلته في المرات السابقة: ماما، إنها مجرد ألعاب. حنَت رأسها، وقالت لي بنصف ابتسامة: هيا، أنهِ عشاءَك، زمانه برد.

أحيانًا أودُّ لو أعيش بمفردي، أحلم بالحياة وحدي، رغم اعتقادي أن ذلك لن يتحقق قريبًا. ستموت أمي من الحسرة لو تركتُ البيت، لو اضطُرَّت إلى البقاء وحيدة لسببٍ ما. أحيانًا أفكر في أن الطريقة الوحيدة للعيش بمفردي هي أن تموت، وهذا يحزنني، كانت الحياة قاسية جدًّا على أمي، ولكن الحقيقة أيضًا أنها تأخذها دومًا على محمل الجد.

في صغري كنت أخاف أن ترتبط بشخصٍ ما، لكن لم يعُد يخيفني ذلك، بل إنني أخبرتها بذلك أحيانًا، بأنني لا أهتم إن تزوجتْ من جديدٍ، ما دام كان رجلًا صالحًا بالطبع، ذاك الرجل لن يكون أبي،

---

(1) الـ(drones) مسمًى إنجليزي يُطلق على الطائرات المسيرّة، وسترِد الكلمة طيلة الرواية بصيغة (درون) للمفرد و(درونز) للجمع. (المترجمان)

ولكنها ستشعر بالصُّحبة، ولن أتحمَّل عبء التفكير الدائم في كونها مهمومة أم لا.

أظن أنه لو كان لها رفيق وذهبتُ إلى غرفتي فسيذهب كلاهما إلى السرير ويستمتعان بعض الوقت، لن تظل أمي تفكر طوال الوقت في أي هباب أفعله بالداخل.

لن أكون معتمدًا عليها. أحيانًا لا أكون (قاتلًا جيدًا) بما يكفي لعدم استطاعتي إخراجها من رأسي، كأنها مسمارٌ وُضع في مخي، الأمر لا يُصدَّق، ولكني أقتل شاعرًا بالذنب، لو يعرف أعدائي ذلك لسخروا مني.

***

2

في الصباح أذهب إلى المدرسة، لكن لا تخافوا، لن أحدثكم عنها، كلكم تقريبًا خضتم التجربة، وتعرفون كيف هي.

لستُ من النوع الذي يقال عنه كثير الصداقات، لا أحد هناك يعرف ماذا أعمل، فأفضل وسيلة لعدم إيقاظ الغيرة هي البقاء متخفيًا، رغم أن الجميع يعلم شيئًا عن قصتي، اسمي، أين أعيش... وأكثر قليلًا، حسنًا، وأنني شخص مُعقد يجب ألا يحتكُّوا به؛ هذا يكفي.

كما أنني لم أكن سيئًا مع أحدٍ بشكلٍ خاص، فأنا كائن نادر بالمعنى البيولوجي للكلمة. منذ فترة كنت على وشك الانقراض، ولكن الآن يمكن القول إنني فصيلة مَحميَّة من قِبل أحد تلك الأشياء الغريبة الموجودة في الأنظمة البيئية المُسمَّاة المدارس، ربما سأحكي لكم القصة يومًا ما؛ إذ إنني أومن بنظرية أن المرء لا يجب عليه أن يحكي أشياء ربما يندم عليها بعد ذلك.

قلت إنني لا أملك أصدقاء تقريبًا، لكنْ لديَّ متابعون، عشرات، مئات، وربما آلاف، كما أن لديَّ الكثير من الكارهين، ربما أكثر من المعجبين.

لا أعرف من يكرهونني بشكلٍ شخصي، لكنهم موجودون. من المثير للفضول أن الكراهية يمكنها الانتقال عبر الموجات والأسلاك كأنها نوعٌ من الإشعاعات الكهرومغناطيسية. أعرف أنهم في الواقع يوجِّهونها نحو (القاتل)، وليس إلى شخصٍ يُدعى سباستيان، لكنَّ كراهيتهم ليست افتراضية. إن صور الكمبيوتر تراكيب من الـ(bytes) والأضواء الملونة، لكنَّ كراهيتهم مجسَّمة وحقيقية وسريعة الانتقال: تتدفق عبر الإنترنت بسلاسة أكثر من اللطف أو الإعجاب.

لا أهتم بكراهيتهم لي؛ فأنا بعيدٌ عنهم، ولا يستطيعون إيذائي إيذاءً حقيقيًّا. من يَكرهون يُعرَفون من طريقة تحركهم وعراكهم وحتى موتهم، في الواقع يقتلون أنفسهم بأيديهم، من كثرة ما يكنُّون من كراهية؛ تتشوَّش رؤوسهم ويرتكبون الأخطاء، وينهزمون في النهاية.

وهذا ما حدث بالأمس، يجب أن تكون أحمق لتطلق على نفسك اسمًا مثل (Bloody Wrestling). كان صلفًا، لاحظتُ ذلك بمجرد ظهوره، ومن طريقته في التحية والنِّزال، أنا متأكد من عِلمه بأنه يصارع (القاتل)، ولا بدَّ أن قتلي بدا له فرصة عمره؛ سيصبح مشهورًا وما إلى ذلك، على الأقل بضعة أيام.

قلت أحيانًا إنني أفضِّل ألَّا يعرفوا هُويتي، لكنهم لا يبالون بي، يقولون لي إن الأمر يبدو جيدًا لتحفيز الناس، لكن لا أعتقد ذلك؛ فالحسد والغضب والرغبة في الشهرة تجعل أعدائي أكثر عجزًا، وينتهي بهم الحال بالخسارة. الحقيقة أنهم سيخسرون في كل الأحوال، لكنهم كانوا سيعيشون وقتًا أطول، وسيتعلَّمون أكثر إن خرجوا للقتال متخفِّفين من تلك السموم.

لا بـدَّ أن هـذا هـو الفـرق بينـي وبينهـم، فحينـما أصـارع لا أكـره ولا أخـاف أيضًـا، هـي مجـرد لعبـة.

خـلال سـاعات قليلـة، (تِـك)، سـيكون قـد ازداد حسـابي البنـكي مئـة يـورو أخـرى، هـذا مـا يدفعونـه لي حينـما أفـوز، خميرة جيـدة، وكل ذلـك نظـير المكـوث سـاعة أو سـاعة ونصفًـا أجـرِّب ألعـاب ڤيديـو. لا أسـتغرب اعتقـاد أمـي أنـه مـالٌ سـهلٌ، فهـي تُضطـر إلى العمـل عشريـن سـاعة، خـلال يومـين وشـوية، تطبـخ وتقـدِّم الوجبـات للأطفـال كثـيري الصيـاح كي تحصـل عـلى هـذا المبلـغ، وبعدهـا تتصبَّـب عرقًـا إثـر تنظيـف الأواني والأرضيـات.

نعـم، مئـة يـورو هـو مـا يدفعونـه لي إن فـزت، ودائمًـا أفـوز، عـليَّ الاعـتراف بذلـك: ليـس دائمًـا، هـذه السـنة خـسرتُ مـرة، لكننـي كنـت مريضًـا بالإنفلونـزا، وكنـت متعبًـا فتركـت ذلـك الفتـى يفـوز، لا بـد أنـه كان سـعيدًا.

المـرأة التـي تهاتفنـي في بعـض الليـالي تُدعـى كاتارينـا، عـلى الأقـل يبـدو الاسـم هكـذا، ولكنـه يمكـن أن يُكتـب بطريقـة أخـرى لأنهـا لا تُوقِّـع خطاباتهـا. في البدايـة ظنَّـت أمـي أنهـا رفيقتـي ولم تكـف عـن طـرح الأسـئلة، وبعـد مـرور الوقـت حكيـت لهـا عـن سـبب اتصالهـا فأومـأت متشـككة في تلـك الأجنبيـة المُنحطـة. لا بـدَّ أنهـا فكـرت: تلعـب مـع صغيرهـا؟ بالكمبيوتـر وفي الليـل؟ بوجـود مـالٍ فيـما بينهـما؟ لا بـدَّ أن تكـون (تلـك) شـخصية مريبـة يـا بُنـي، أتذكـر أنهـا قالـت لي ذلـك.

تتحـدث أمـي عـن كاتارينـا قائلـة "تلـك"، (تلـك) تتصـل بـك، تقولهـا لي حينـما يـرن الهاتـف. تسـألني: هـل خرجـت مـع (تلـك) مـرة أخـرى؟ لا تقـول "هـي" حتـى، "تلـك" هـي الصيغـة التـي تسـتخدمها أمـي للإشـارة إلى شيء مـا.

مسكينة أمي، ليتها تعرف...

منذ شهور، استثمرنا الصيف في طلاء المنزل، استحال شيئًا قذرًا في الحقيقة. حينما قلت لأمي إننا في حاجة إلى من يضطلع بالطلاء وإنني سأدفع إليه أجرته، استشاطت غضبًا. لا بدَّ وأنها ظنَّت أنه واجبها، وأن فكرتي كانت انتقادًا لأنها لم تفعل ذلك، لكن أقسم إنني قلتها بنيَّة صافية، كهدية. أمي صعبة المراس إلى درجة تُشعِر الواحد بالذنب، تفعل ذلك من دون قصدٍ، ولكن هكذا هو الأمر، والأسوأ أنها تعاني أيضًا.

شعرتُ بالفخر حينما ذهبت إلى البنك لأسحب مالًا للدفع إلى النقَّاشين، كانت طريقة لإثبات أنَّ ما أفعله يُجدي نفعًا، لأنني أشك في ذلك بكثرة. كسب المال عن طريق اللعب من وجهة نظرٍ معينة لا يبدو أمرًا حسنًا، بالنسبة إليَّ، فالذهاب إلى الكازينو أو لعب البينجو حتى ضياع المال شغل معاتيه، لكن ألعاب الڤيديو ليست كذلك، لا أفعل ذلك من أجل المال، مع أن الأمر يفيدني.

رغم أنني أفكر أحيانًا: ماذا لو راهنوا عليَّ؟ حينها قد أجد في مكان ما إعلانات من نوع "مباراة حماسية .ASSASSIN VS HOODED DEAD ، واحد ضد خمسة"، وأقول لنفسي لو حدث ذلك فسأترك اللعب. أصدق ما تقوله لي كاتارينا من أن لديهم فريقًا من المُختبِرين لتطوير ألعاب الڤيديو ومعرفة العيوب وتحسين الإستراتيجيات. وحسب ما أرى، فأنا في المستوى A. هناك مستويان أعلى: +A و++A، لا أعلم كم يدفعون إليهم، لعلَّهم يقتلون أكثر وأفضل مني.

ربما تفكرون الآن في أنني شخصٌ سادي أو ما شابه؛ أنني أستمتع بالدماء وإطلاق الرصاص وحصد أرواح الناس، لا، هي مجرد لعبة، وليست الألعاب العنيفة تحديدًا هي أكثر ما يستهويني. أحيانًا يكون دوري هو البقاء على قيد الحياة، الهرب من الأعداء المدجَّجين

بالسلاح، تفادي الفِخاخ، حل معضلات منطقية، وأفوز أيضًا. يقولون إن لديَّ حاسة سادسة لاستشعار هذه الأشياء.

يقولون لي ذلك منذ زمن وهم على حقٍّ، أفعل ذلك ببساطة، بأداء طبيعي جدًّا كالتنفُّس والرمش والمشي في نفس الوقت.

سبق أن قلت إنني قضيتُ أسبوعين أيضًا في تجربة (الدرونز)؛ طائرات بلا طيار. إن استطعت فسأعمل مهندس طيران يومًا ما، رغم ظني أن الأمر سيجعلني أنكفئ على المذاكرة، والمذاكرة بغباء لا تستهويني كثيرًا.

لا أود التفكير في عملي حينما أكبر، كما أنني لم أحسم أمرَ رغبتي في أن أكبر، حالي الآن ليس سيئًا، رغم اضطراري إلى دفع الثمن بالذهاب إلى المدرسة كل يومٍ. أشك في أن المرء لا يمكنه قضاء حياته في اللعب بالكمبيوتر، على الرغم من رغبتي في الصعود إلى المستويَين A+ و A++. ليس بهدف المال، لكن لا بدَّ أن الأمر أكثر إثارة. فألعاب اليوم لها مستوى لا يُصدَّق ولا يُقارن بأي حالٍ بما كانت عليه من أربع سنوات حين بدأت.

أظن أن الكثيرين كانوا سيتخلَّون عن أشياء ثمينة ليفعلوا ما أفعله، يمكنني أيضًا جني المزيد من المال إن أنصتُّ إلى كاتارينا، فالحد الأقصى لي ساعة ونصف يوميًّا، عشرون ليلة في الشهر.

لكن لا تنخدعوا بذلك، ينتهي بي الأمر منهكًا أيضًا، هناك ليالٍ أضطر فيها إلى الاستحمام بعد اللعب، ما أعرفه أن هذا الأمر يزعج أمي التي تظل دائمًا في انتظار موعد انتهائي وفتحي الباب. أمي تُثقل عليَّ، أعترف بذلك.

***

3

حينما كنتُ طفلًا والسعادة بادية علينا في المنزل، اعتقدت أن أبي ساحر.

اعتاد أن يفعل أمورًا بدت لي رائعة، فمثلًا يضع أطباقًا صغيرة تحوي سوائل على النافذة ويقول لي: سترى، خلال أيام سترى... وبعد انتهاء الوقت أتأمَّل البلَّورات المُلوَّنة كأنها وُجدت من اللاشيء.

أو أن يضع سائلًا في زجاجة، ويضع بعدها ما أسماه المسحوق السحري، ثم يضبط البالون على فوهة الزجاجة وبعدها بقليلٍ ينتفخ البالون.

تأخرت كثيرًا في إدراك أن أبي ليس بساحرٍ، بل محتال، ليس لتلك الأسباب، لكن لأسبابٍ أخرى.

لا أحب تذكُّر ما حدث لي في الماضي، رغم تردُّدي فترة على طبيبة نفسية كانت تسأل وتسأل وتسأل عن الماضي، وكنت أصمت طوال الوقت تقريبًا. أفضِّل الرجوع إلى أحداث الماضي التي لا علاقة لي بها. على

سبيل المثال، إلى كيف كان يدبِّر الناس أحوالهم قبل وجود أعواد الكبريت، أعرف ذلك بالفعل: القصة المملَّة تلك لخبط حجرين وحكّ الأعواد الخشبية، لكن أقسم لكم إنني جرَّبت ذلك مراتٍ ولم يحدث شيء، لا شرارة ولا حرارة، لن ينالك من هذا غير ألم اليدين، رغم سهولة حكّ عود الثقاب وإشعال النار! ألم تفكروا قطُّ فيما ستجلبونه معكم إن استطعتم السفر إلى حقبة الرومان مثلًا أو إلى ما قبل التاريخ؟ أعتقد أنني سأذهب إلى أحد الصينيين، وأجلب معي مئة علبة كبريت. يعطونك اليوم ثلاثة من الحجم الكبير مقابل يورو، كنت لأصبح غنيًّا ومشهورًا! كنت سأبدو كساحرٍ.

أفكر أيضًا في أمورٍ مستقبلية، ماذا ستُحضرون معكم إلى الوقت الحاضر إن سافرتم عبر الزمن خمسين أو مئة سنة قادمة؟ هذا أصعب، هاه؟

منذ سنواتٍ تحلَّت ألعاب الكمبيوتر بمستوى جيدٍ. اشتريت المجلات أحيانًا لأطَّلع على الجديد، وقرأت أشياء عن الرسوميات المتجهية والأصوات المحيطية والمعالجات رباعية النواة... لا أبالي بأحشاء تلك الموضوعات. يقضي زملاء دراستي الفُسحة متباهين بأنهم يمتلكون كمبيوتر كذا أو كذا أو بأن هاتفهم المحمول يفعل -لا أعرف- أي هبل. ليس لديَّ هاتف محمول حتى، ما يؤكد كوني غريب الأطوار. كنت أتحدث عن أن الألعاب اليوم خرافية، وأتوقع أن تكون مذهلة خلال سنتين، تلك هي الألعاب التي أجرِّبها. أحيانًا تعطيك انطباعًا بأنك داخل عالمٍ واقعي، ولولا التهنيج وبالونات الحوار التي يضيفونها ولوحات تسجيل النقاط والمؤثرات الخاصة، لما أمكن تمييزها عن الواقع. في بعض الأحيان أسأل نفسي كيف ستكون ألعاب المستقبل، في ظل هذه المحاكاة المتزايدة للواقع وما شابه.

لا يقتصر الأمر على الألعاب، فـ(الدرونز) لا تحمل طيارًا ولا ركّابًا، بل لديها خرائط ميدانية وتُوجَّه بالـ(GPS). عما قريب ستُستحدَث لعبة يستخدمون فيها (الدرونز) التي جرَّبتها بنفسي. أقلعت وتعلَّمت الهبوط بها في مساحاتٍ أضيق من ملاعب كرة اليد، ناورت بين مبانٍ سكنية وقُدتها في أماكن صحراوية وجليدية. كانوا يزيدون صعوبة المهمة في كل مرة: الارتفاع بأجنحة يعلوها الثلج، توجيهٌ ذاتي إن تعطَّل جهاز الملاحة، الرجوع إلى مكان آمن بخزان وقودٍ فارغٍ، الهبوط ليلًا ودون إنذارٍ فوق حاملة طائرات...

أحيانًا أفكر في أنني أعيش في المستقبل. بعض الأشياء التي سيفعلها ملايين الأشخاص خلال سنة أو سنتين قد فعلتها من قبل، ربما لهذا السبب أحب ما أفعل، أبتعد عن الماضي.

بالأمس تعرَّفت إلى شخصٍ جيدٍ، يُسمي نفسه (تشاندرا)، هادئ وبارد، لاحظت ذلك حينما تبادلنا التحية. تبدأ جماعة كاتارينا النِّزال بطريقة تروقني. يجبرون الخصوم على تبادل التحية على طريقة الطقوس اليابانية القديمة. نمشي حتى نتقارب للغاية ونؤدي انحناءة، بعد ذلك نتوجه نحو مواقع البداية حيث يبدأ اللعب، ويمكنها أن تختلف كثيرًا: واحد على حافة بئر، وآخر مُعلَّق على رافعة مثلًا. قبل البدء يخبروننا على الشاشة بمواقعنا وبأسلحة أو مهارات كل منَّا، وتستغرق المعلومات دقيقة واحدة فقط. يجب أن تكون سريعًا للغاية، وهذا يشكِّل -بالطبع- جزءًا من اللعبة.

إن (تشاندرا) محترم وخفيف الحركة، لا يغش، ذكي ويجيد الانتظار، لديه ردود أفعال جيدة ويستطيع استباق بعض حركاتي، لا شكَّ أنه من الفئة A، ليس كالكثيرين ممن نافستهم حتى الآن، ورغم أنه خسر في النهاية، لم ألحظ غضبه قبل موته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بحثت في الـ(ويكي)[1]، "تشاندرا" هو اسم تلسكوب يعمل بأشعة إكس، لكنه أيضًا إله القمر في الميثولوجيا الهندوسية.

قبل أن يسموني (القاتل)، كان اسمي (أنتاريس)، وهو نجم أطلق عليه العرب اسم "قلب العقرب".

تشاندرا وأنتاريس كلاهما في السماء، أنا ألمع أكثر، لكنه سيظل جيدًا جدًّا، إن تحلَّى بالصبر.

***

(1) إشارة إلى (ويكيبيديا). (المترجمان)

تشير الساعة (الرولكس) الذهبية المقلَّدة المُعلَّقة في إطار الباب إلى التاسعة إلا الربع والحر خانق بالفعل.

أخذ حزرات باناراس عصاه، وهو أكبر أعضاء (الجرجة)[1] المحلية سنًّا، ثم خرج من المنزل ساحبًا ساقه العرجاء إلى ضواحي البلدة.

فوق الربوة التي تتراكم أسفلها آلاف علب الصفيح، كان الأطفال الأوائل منتظرين بالفعل، وآخرون يأتون ركضًا من بعيدٍ، قادمين من القرية المجاورة. يتسبَّب الحر في اهتزاز الأفق، وأمكن قدوم مزيد من الأطفال وسط هذه الرؤية الضبابية.

فكَّر: ينبغي أن يكون هؤلاء الأطفال في المدرسة.

أضاف بعدها بقليلٍ: لو كانت هناك مدرسة.

كان لا يزال هناك مئة خطوة على الوصول حينما، وسط هذه الجلبة، أشارت بعض الأذرع نحو الأفق. رفع رأسه إلى حيث أشار الأطفال، لكنه لم يرَ شيئًا، حاول أن يدقق النظر، ووضع يده فوق حاجبيه كغمامة، لا شيء.

تزايدت حدة الصياح وعشرات الأذرع تشير إلى خواء في السماء، ثم قال لنفسه: لعلَّه لعبُ عيال فارغ، لم يستطع أحد في القرية رؤية ما قالوا إنهم رأوه.

كان على وشك الرحيل حينما رآه، لم يُحدث ضوضاء، وحجمه صغير كأنه لعبة، يطير ببطء وعلى ارتفاعٍ طفيفٍ، ربما على بُعد مئة قدمٍ فوق رؤوس الأطفال. أخذوا يقفزون رافعين أذرعهم في محاولة لقنص ذلك العصفور الصامت بينما تتعالى صيحاتهم.

---

(1) الجرجة أو الجرغة (بالفارسية جرگه): تجمُّع تقليدي يشبه مجالس الشورى المحلية لقادة شعوب البشتون، المعروفة تاريخيًّا باسم الأفغان، يتخذون فيه القرارات بتوافق الآراء ووفقًا لتعاليم الإسلام، هدفها الرئيسي تجنُّب الحروب القبلية. (المترجمان)

رسمت أصابع الأطفال قوسًا في الهواء متابعين مساره على الجانب الآخر من الأفق، بعد ذلك غاب عن نظرهم.

عاد حزرات إلى البيت بخطاه العرجاء وهو يهز رأسه، وأقرَّ بأن الأمر مثيرٌ للفضول حقًّا.

إن كان صحيحًا أنه منذ فترة يمرُّ هذا الشيء من هنا في حدود التاسعة صباحًا، فربما يتعلق الأمر بجزء من ساعة عملاقة، تدور عقاربها حول العالم بدقة ساعة رولكس.

كررها في نفسه: لكن الطائرات الورقية كانت أجمل.

***

4

لم يعطوني شخصية حيوان سوى مرة واحدة فقط، كان نمرًا، ليس أنثى النمر ولا ذكر النمر، بل السنوريُّ الذي يظهر في الوثائقيات التليفزيونية. الأمر واعد ومثير للفضول؛ إذ يمكنك الاختيار بين الرؤية البانورامية والمنظور الذاتي. من سبق له اللعب منكم سيفهم ما أقول: تمكَّنت من تأمُّل المشهد كأن هناك كاميرا على مسافة مترين فوق رأسي أو الانتقال إلى رؤية الكيفية التي من المفترض أن ترى بها النمور، بواسطة مرشِّح يُلغي بعض الألوان، ويركز على الرؤية الليلية. برعتُ في الأمر؛ واجهت صعوبة في التأقلم، لكن في النهاية أظن أنني أديت بشكلٍ جيدٍ.

كان الهدف عبور منطقة موبوءة بالصيادين، بعضهم مسلَّح ببنادق، والبعض الآخر يحمل أقواسًا وسهامًا. تحتم عليَّ أيضًا تفادي أفخاخ الشِّباك أو الخنادق ذات الأوتاد أو اللحوم المسمومة... استطعت

-أنا النمر- التخفي والترصد والمهاجمة. تقيدت الحركات بأُطرٍ محددة، وكذلك الغابة، ذات النباتات والحيوانات الغريبة.

لكني لاحظتُ سريعًا أن الأمر لن ينجح، ومآله الفشل.

لا يرجع الأمر إلى روح اللعبة، ولا إلى أن الناس تفضِّل المغامرات المليئة بالحركة؛ المشكلة في الكلمات.

إذا تأمَّل إنسان صورة تلك اللعبة فسيضع بشكلٍ آلي كلماتٍ مقابل ما يرى (شخص، حزام، خرطوش، قوس، قفزة، مسار، مطاردة...) لكن الحيوان لا يستطيع فعل ذلك، ليس لأني أعرف الكثير عن ذكاء الحيوانات، فمن يدري كيف بحق الشيطان تفعلها بلا كلماتٍ، لكن لا يمكن أن يكون الأمر متماثلًا!

لا يستوي التفكير بالكلمات ومن دونها، نمر في غرفتي سيراني فريسةً، وما سواي سيكون بالتأكيد جزءًا من مشهدٍ لا يفهمه.

حينما أرى غرفتي أُفكر في باب، منضدة، سلة مهملات، شاشة، شماعة، دولاب، حائط، مجلة... لا أرى فحسب، لكن الكلمة تعطيني مغزى الأشياء، وكل ما فعلته أو أستطيع فعله بها، لذلك فمهما استطعتَ الحركة والرؤية والشم والقفز واللمس كنمرٍ، فلا يمكنك (التفكير) مثله.

لذا كان عليهم انتزاع الكلمات من ذاكرتنا.

ربما يحدث ذلك في مستقبلٍ ما، يضعون لك سماعة، ويمحون من عقلك الجزء الخاص بالكلمات، بالنسبة إليَّ فلن يهمني تجربتها وقضاء فترة بلا كلماتٍ ولا ذاكرة.

يقولون إن ألعاب الكمبيوتر مُضرَّة لِمَا بها من دم وتقاتل بين الناس، لكن الواقع أسوأ.

بالأمس -الجمعة- انشغلتُ حتى قرابة الرابعة فجرًا؛ إذ أوكلت إليَّ (تلك) التقييمَ النهائي لإحدى الألعاب. كان بمقدوري إنهاؤه في ساعة ونصف، لكنني أردت تجربتها حتى النهاية، كما أنني أشعر بالراحة هكذا، وحدي. وتحسبًا لاستيقاظ أمي في منتصف الليل، عادةً ما أضع منشفة على فتحة الباب كي لا يظهر وميض الشاشة. أضع السماعات وأجلس للعب كأنني آخر الناجين من عالم مُدَمَّر.

في التقييمات النهائية، يطلبون مني بعد اللعب أن أجيب عن أكثر من خمسين سؤالًا عن الرسوميات وطريقة اللعب والـ(frame rates) والموسيقى والمؤثرات والسيناريو.. يتطلَّب الأمر وقتًا معتبرًا كي أحكي لكم سيناريو تلك اللعبة المبني على أحد الأفلام، على خلفية قصة عميقة لأب وأم وابنة، بكل عَكِّهم الأُسري، كأنها آتية من مُخيِّلة روائي. لكن صميم الموضوع في النهاية هو قتل (الزومبي)، وفي أثناء ذلك يظهر عدَّادٌ على الشاشة. تمكَّنت من قتل 2307 في ثلاث ساعات مستخدمًا كل شيء، من عصا المكنسة إلى أغطية البالوعات مرورًا بخراطيش الديناميت والمناشير الآلية المعلقة في دراجة نارية. كل ما تراه على الأرض أو يمكن نزعه من مكان ما يصلح للقتل، وهو أمرٌ مذهلٌ، لأنني لم أعرف ما سيأتي لاحقًا. أود أن أقول إنه منذ زمن كان لديك ثلاثة أو أربعة أسلحة وعشرون أو ثلاثون عدوًّا، لكن الأدوات الآن ليس لها حدود وكذلك الضحايا. شعرت بأن اللعبة نفسها هي التي تنتج (الزومبي)، لا أعرف إن كنت أشرح مقصدي جيدًا. لقد ظهروا من كل مكان، عشرة أو عشرين دفعة واحدة، بوجوه مختلفة وأطوال متباينة وطُرق سير متنوعة، ولا يسعني تخيُّل المُبرمجين يقولون: "سنصنِّع خمسة ملايين (زومبي) من باب الاحتياط". من الأسهل أن يقولوا: "سنبتكر آلية لتصنيع الكثير من (الزومبي) لمن يقدر على قتلهم"، هذا ما أشير إليه حينما أقول إن الآلات ستتولى السيطرة يومًا ما.

بعد مُضي الساعة الأولى مللتُ نشر الأرجل وتفجير الأجساد وسحق الجماجم، فبمجرد أن تتقن حركات البطل، يصبح الأمر بسلاسة الحياكة مع الغناء، ومن هذا المنطلق تتلخص اللعبة في اقتل-اقتل-اقتل، وهو ما يرعب أمي، كما تتخيلون.

لكن -إجمالًا- قيَّمتها بـ9 من 10.

لأن الأصالة كانت في شيء آخر، فوسط هذا الكم من الدماء، تمكَّن الأب -الذي لعب دور البطل- من العثور على ملجأ، وأخذ يتذكر مشاهد لحياته مع ابنته وزوجته، وهو ما يُطلعك على سبب كل هذا العنف، وما آل به إلى ذلك الوضع، وفي الحقيقة أظن أنك لو تعرضت لما تعرض له، فلن يسعك إلا فعل ما في استطاعتك لحماية ابنتك.

كان واضحًا أن ذكريات الأب متخيَّلة عن طريق إنسان، ربما هو روائي كما قلت لكم.

لكن سيأتي اليوم الذي تستطيع فيه شخوص الألعاب (ابتكار) ذكريات لم تأتِ على بال روائيين أو مبرمجين. ما الفرق إذن بين آدمي (يسترجع) ذكرياته وشخصية قادرة على (صنع) ذكرياتها؟

إن أردتم ربح خميرة لا بأس بها فما عليكم سوى السعي لاختراع برنامج يجتاز اختبار (تيورنج)، فثمة حقيبة تحوي مئة ألف دولار لم يحصل عليها أحد قطُّ. هناك من يقول إن ذلك سيحدث في 2029، ولكني أتوقع حدوثه قبل ذلك بفترة.

على ما يبدو فإن مخترع الاختبار عالِم رياضيات معتوه انتهى به المطاف منتحرًا. يتمثَّل الاختبار في وجود ثلاث غرف بها حكم وإنسان وآلة. يوجِّه الحَكَم أسئلة كتابية إلى الآلة وإلى الإنسان، ويقرأ الإجابات. إن لم يستطع بعد ساعة أن يعرف في أي الغرفتين تكون الآلة، فهذا يعني أنها تصرفت كإنسان، وتفكر كإنسان، وأنها تملك ذكاءً بشريًّا.

لو قلت لأمي إنني قتلت البارحة أكثر من ألفَي عدو لنظرت إليَّ بهلعٍ، ولسوف تتساءل حتمًا مع أي نوع من الوحوش تعيش.

ومع ذلك فهي تشاهد الأخبار ليلًا من دون أن يرفَّ لها جفن.

العالم الواقعي أسوأ بكثيرٍ؛ الدم حقيقي والموتى من لحم ودم.

كما أن الكلمات لا تسبِّب ضررًا في الألعاب، أما في العالم الواقعي فهي تؤلم كالضربات: اخرس، أبله، مسكين، فاشل...

وعلاوة على ذلك، هناك تلك العبارات التي تُطلَق بكثرة وتجرح كالسِّهام المسمومة، تلك التي يصعب نسيانها، على سبيل المثال: لو-كان-أبوك-هنا... أو: لو-رآك-أبوك...

لا عجب في أنني لا أحكي لها عمَّا أفعله ليلًا.

***

على شاشة عملاقة كانت الرقيبة فلورانس و. أُواتيس تراقب مشهدًا حضريًّا بعيدًا مزخرفًا بالرسوميات والبيانات الرقمية. تَصدر من سماعاتها، التي تجعل لرأسها الأصهب مظهرًا غريبًا، أصواتٌ مشوَّشة لموسيقى صاخبة.

دقَّ العريف مارتن ج. نورث -المعروف بـ(موسكيتو)[1]- داخل الـ(DAW) على الباب الزجاجي مرتين، ودون انتظار الرد اجتاز المدخل، وجلس بجانب رقيبته وسألها:

- ماذا تريدين أن تُريني؟

قالت بينما تنزع السماعات:

- انظر إلى هذا.

نقرت على لوحة المفاتيح، فظهرت كاميرا على مستوى سطح الماء تقريبًا موجَّهة نحو مقدمة سفينة. شرحت الرقيبة أواتيس لموسكيتو مدلول الصور التي طالعتها بشكلٍ تفصيلي عدة مرات:

- انظر، إنها تصعد الآن، تستعد للهبوط إلى حاملة الطائرات كما هو متوقع، لكنها اكتشفتْ سربَين من الطائرات يشغلان المَدْرج استعدادًا للإقلاع. سترى استحالة التموقع هناك، فلا مجال لعلبة صودا حتى.

قال العريف لنفسه بينما يراقب تحليق الكاميرا فوق الطائرات المصطفة في تشكيلٍ ضيقٍ:

- مستحيل.

تابعت الرقيبة أواتيس:

---

(1) Mosquito: تعني في الإسبانية (بعوضة). (المترجمان)

- لاحظ ذلك الآن، الطيار يجوب المدرج، يرسم قوسًا، وينعطف للاقتراب عبر مؤخرة السفينة.

ارتدت إلى العريف نورث مشاهد عايشها كملّاحٍ للطائرات الحربية: تناوب السماء والماء، بدورانين حلزونيين خطيرين، وخاصةً على متن طائرة ذات قوى دفع محدودة للغاية.

قالت المرأة بينما تستبق بإصبعها حركة (الدرون):

- انظر كيف وأين هبط.

ركزت الكاميرا على المدرج، للحظة بدا كأنه سيصطدم بالطائرات، ولكن خلال ثوانٍ توقفت الصورة.

قال العريف منتفضًا:

- اللعنة، هذا الفتى كان على نفس سرعة السفينة وتموقع بين طائرتين حربيَّتين، لا بدَّ أنه أوقف المحركات وترك التحكم ووقع بينهما كحشرة يعسوب، لا بدَّ أنه لم يُحدث أي صوتٍ! هذا الفتى بارع.

أقرَّت الرقيبة بذلك:

- أعتقد ذلك، إنه ماهر جدًّا، أودُّ إدراج هذه المناورة في أجهزة المحاكاة، هذا يعني أنه كان في استطاعتنا الهبوط فوق شاحنة متحركة.

قال نورث:

- نظريًّا.. واحد فقط من بين ألف يمكنه فعلها.

***

5

بالنسبة إلى أبي عليَّ أن أشكره على شيئَين أو ثلاثة: الأول، بالطبع، أنه صاحب البذرة الموضوعة في بطن ماما التي لولاها ما كنت هنا.

الشيء الآخر هو إصراره على أن أصبح عازف بيانو.

لا أعرف من أين أتى بتلك الفكرة اللوذعية؛ إذ لم يتمتع أبي بأي معرفة موسيقية، ولم يتعدَّ إحساسه بالإيقاع إحساسَ مصفاة خضراوات. لطالما قال إنه يحب الأوبرا، لكن حينما رحل لم يكن ثمة أي أسطوانة أوبرالية في البيت. إن جاء أحدٌ لزيارتنا وضع يده على رأسي قائلًا:

- سيصبح سباستيان عازفًا مشهورًا.

اعتدتُ أن أبتسم مصدقًا ما يقول. بالطبع مرَّ وقتٌ طويلٌ على ذلك.

لكنه تحلَّى بالمثابرة. لا بدَّ أن عمري كان أربع أو خمس سنوات حينما بدأ ما أسماه "تمرينَهُ"؛ إذ يدلِّك أصابعي، ويؤدي لي تمارين الإطالة قائلًا إن الميزة الرئيسية لعازف البيانو هي امتلاك أصابع

طويلة وقوية. أحضر لي كريَّات مطاطية تحتم عليَّ ضغطها ساعاتٍ: مئة ضغطة بيدٍ، مئة بالأخرى، وأعاود الكرَّة.

يبدو أن ما أحكيه لا يمت بأي صلة إلى ما أفعله الآن، لكن الأمر أنني كنت في الصف الأول الابتدائي حينما ألحقني بدورة للآلة الكاتبة. لم يشرح لي الأسباب العميقة لذلك لكن لا بدَّ أنه ظن أن عقلَي كاتب الآلة الكاتبة وعازف البيانو يتشابهان كثيرًا، وذلك على ضوء رؤيته طريقة جلوسهما في بعض الصور، وقد علَّل ذلك بقوله: هكذا تتمرَّن على دقة الأصابع.

تسنَّى لي في السابعة الذهاب إلى أكاديمية لأخذ دورة في استخدام الآلة الكاتبة، مع أناس أكبر مني بكثير. في تلك الفترة لم تكن هناك آلات كاتبة ولا من يأخذ هذه الدورات تقريبًا، لكن الحي الذي أسكنه كان هكذا، به من لا يزال يحلم بأن يؤدي التحاقه بدورة للحياكة أو للكاراتيه أو للرسم إلى انتشاله من البؤس.

يمكنكم تخيُّل مدى الإثارة في المكوث ساعة يوميًّا، خمس مرات أسبوعيًّا، في كتابة أشياء مثل balaba/tukeya/malapo[1]... وبسبب تبديل المُدرسين على فترات قصيرة في تلك المغارة (لحسن الحظ أنها أُغلقت وحلَّ محلها مطعم بيتزا سيئ هو الآخر) فإن ذكرياتي خلطبيطة. كان ثمة فتاة شابة تعتني بي جيدًا، وتضع لي دليلَي هاتف على الكرسي كي أتمكَّن من الوصول إلى لوحة المفاتيح بصورة مريحة من دون الحاجة إلى الجلوس على ركبتَي، ورجل كبير بشاربٍ يعطيني دعامات إن رأى عدم استطاعتي لمس الزر بالإصبع الملائمة.

الأمر أن تلك الدورة أُديرت بالكمبيوتر، وحُفظت النتائج على قرص مرن. في البدء يجب تحميل البرنامج والتعريف ووضع القرص، بهذا الترتيب. بسيطة، أليس كذلك؟ لكن لا أحد يمكنه تخيُّل الأشخاص

(1) كلمات لا معنى لها في الإسبانية. (المترجمان)

هنـاك، يمكـن للمـرء أن يفكـر في أن الاختلافـات بـين تلـك الخطـوات الثلاثـة ليسـت بالكثـيرة، لكنهـا كانـت كذلـك: بدايـةً ممـن أصرُّوا عـلى دفـع القـرص المـرِن بهمجيـة لـكي يوضـع بالعكـس، وانتهـاءً بمـن نسَـوا كلمـة مرورهـم مـن يـوم إلى آخـر، مـرورًا بمـن أطفـؤوا الكمبيوتـر مرعوبـين إثـر سـماع الـ(بيـب) المُنـذرة بحـدوث خطـأ مـا.

لذلـك في منتصـف الـدورة وجـدت نفـسي أتنقـل بـين منضـدة وأخـرى لمسـاعدة مـن لديـه مشـكلة.

يقولون لي: أيها الصغير، هل يمكنك مساعدتي؟

لا أعلـم مـن أي مقلـب قمامـة أتَـوا بأجهـزة تلـك الأكاديميـة، التـي كانـت وقتهـا أقـدم مـن الخيـط الأسـود[1]. شاشـات زرقـاء وتهنيـج وأعطـال في لوحـة المفاتيـح وفـأرات يتراكـم الوبـر عـلى كراتهـا بغـرض التحـول إلى عناكـب. كنـت سـعيدًا بعـد نهايـة تلـك الـدورة. لا بـدَّ أن أحدهـم علَّمنـي طريقـة حـذف محتويـات القـرص الصلـب ونظـام التشـغيل وخلافـه، والباقـي شـأني الخـاص.

لكـن في ذلـك الصيـف اعتـبر أبي أن الجـزء الآلي مـن مرحلـة تعلُّمـي للبيانـو قـد انتهـى، وأعتقـد أننـي منـذ ذلـك الحـين بـدأت أستشـف روحـه غـير المتسـقة: لـن تعـاود الذهـاب إلى تلـك الأكاديميـة السـيئة! لطالمـا قالهـا لي كلـما أصررت عـلى العـودة إلى هنـاك. كانـت هـذه أول مشـاجرة أتذكرهـا، أظـن أنهـا وقعـت وأنـا في السـابعة مـن عمـري. لا بـد أنني سـئمتُ الأمـر حتى سـاندتني أمـي وأختي في شـهر سـبتمبر، لذا عُدت إلى ذلك الوكر القذر في أكتوبر، على الرغم من نسـياني اسـتخدام الآلة الكاتبـة شـيئًا فشـيئًا، وبـدلًا مـن مسـاعدة المترددين عـلى المـكان، سـمح لي الأسـاتذة بتصليح الألعاب الصغـيرة والبرامـج المُحمَّلـة عـلى الأقـراص المرنـة. (بالمناسـبة: مـن يتذكـر تلـك المربعـات السـوداء بمعلوماتهـا العبيطـة التـي

(1) تعبير إسباني يدل على شدة القِدَم. (المترجمان)

كانت تُكتب على شاكلة 1/5#، 2/5#...؟ أترون ما أقوله لكم عن مسألة ما قبل التاريخ؟).

حينما بدأت الدراسة في الصف الثالث غادر أبي المنزل، وعندئذٍ تسارعت وتيرة الكارثة، رغم أنني لا أود الحديث عن ذلك الآن. كانت قد مضت شهور على عدم نوم أبي بجوار أمي، ومن بين أشياء أخرى، مضى وقتٌ لم يقل فيه لأصدقائه إن "سباستيانه" سيصير عازف بيانو؛ إضافةً إلى لامبالاته بمكان وجودي بين السابعة والثامنة مساءً.

ومع بداية الصف الدراسي الرابع حصلتُ على أول كمبيوتر لي: خردة موديل 486، بقرص صلب سعته 40 ميجا، ومشغل أقراص وشاشة 14 بوصة تحتم عليَّ خبطها حينما تنحسر الصورة على الجانبين.

سأحكي لكم بين قوسين عن أكثر صورة ذهنية عاطفية أحتفظ بها من طفولتي: أمي تحمل الـ(CPU) في حقيبة من الخوص، أختي تسحب عربة التسوق التي ربطنا فيها الشاشة، وأنا أحمل علبة لوحة المفاتيح والفأرة وشبكة من الوصلات والكثير من الأقراص المرنة. أظن أنني لم أكن يومًا بهذه السعادة. الآن أغلق القوسين.

لم يكن أول جهاز كمبيوتر يدخل إلى بيتي فحسب، بل في البناية التي أعيش فيها بالكامل.

الحي الذي أسكن فيه مميزٌ قليلًا في الحقيقة، يسميه الناس (بابيكاس)، مع أن الأوقع أن أقول إنني أعيش في (إل بوثو). حتى وقت قريب كان جليًّا ما يفعله الرجال وما تفعله النساء هنا، وما زال يدهشني أنه منذ فترة قصيرة كان أحد زملاء دراستي ينادي أباه بـ"حضرتك". في ساحة السلع الرخيصة التي تُقام بجانب بيتي، حيث كان أبي وأمي يذهبان لشراء الفاكهة والخضراوات معًا، توجد اليوم أكشاك تبيع السيديهات والديڤيديهات حيث يحفظ الناس الأفلام التي يحمِّلونها بالكمبيوتر الذي أهداه إليهم البنك أو اشتروه بالتقسيط.

أحيانا أهذي؛ منذ ثماني سنوات كنت الوحيد الذي يملك كمبيوتر في بنايتي على الرغم من حجمه وغرابته. قبل أيام رأيت امرأتَين محمَّلتين بالأكياس تثرثران عن أشيائهما وتقول إحداهن للأخرى: يا بنت لن أستطيع الذهاب، عندي في المساء دورة عن هذا "النت". لطالما تساءلت عمَّا سيحدث هنا بعد ثماني سنوات. ما يمكنني أن أحكيه لكم بعد ذلك عن كيفية وصولي إلى المرحلة الحالية يمكنكم تخيله. أعتقد أنني كنت في الصف الثاني الثانوي حينما بدأ زملاء دراستي في امتلاك أجهزة كمبيوتر، لكنني كنت نافعًا لهم لسنوات عدة من خلال مساعدتهم في تركيب أجهزتهم، وتحميل برامج تبهرهم على أقراصهم الصلبة. عندها جاءني أحدهم ليطلب مني أن أساعده في "تكريك"[1] برنامج، ومن هنا بدأت المتاعب.

في الواقع بدأت المتاعب قبل ذلك بقليلٍ. وددتُ القول إنه في تلك الفترة بدأت المتاعب الثقيلة.

***

(1) بالإنجليزية Cracking، وبالإسبانية Crackear: مصطلح تقني يشير إلى كسر حماية البرامج أو الألعاب المدفوعة وإتاحتها للاستخدام المجاني. (المترجمان)

لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة صباحًا حينما جاء مسلّحان ببندقيتين من طراز AK-47 إلى بيت حزرات باناراس. قالا بانحناءة طفيفة:

- السلام عليكم.

فردَّ عليهما:

- وعليكم السلام.[1]

وبلا كلماتٍ أخرى، خرج ثلاثتهم إلى ضواحي القرية صوب مكبِّ النفايات، حينئذٍ لم يكن هناك أي طفل في الجوار.

كانت شمس المغيب ترسم هلالًا من الظل غرب الربوة. في ذاك المكان الآمن جلس حزرات وأحد الرجلين القرفصاء، بينما يجوب الآخر الأنحاء مراقبًا من بعيد.

بعد قليلٍ ظهر الأطفال الأوائل. أتَوا في مجموعات صغيرة، فتوجَّه إليهم المُراقِب صائحًا وشاهرًا بندقيته:

- اذهبوا، اذهبوا!

ظل الأطفال على مسافة محايدة بين الربوة والقرية، وأخذ المزيد منهم يتوافدون ويحتشدون أمام الرجال المجتمعين. من الجانب المقابل اقترب أطفال آخرون، حينها انتفض الرجل الجالس مع حزرات.
- لا يمكنكم المكوث ها هنا! عودوا إلى دياركم!

لم يتحرك هؤلاء الأطفال أيضًا. على مسافة معقولة من الربوة والرجال الثلاثة، أخذوا يكوِّنون بعض المجموعات لتنبيه القادمين.

---

(1) كُتبت في النص الأصلي "Salam Aleikum"/"Aleikum Salam" إشارةً إلى قول التحية باللغة العربية. (المترجمان)

اجتمع الرجال الثلاثة، ورسم حزرات قوسًا في السماء. نظر إلى ساعته وظل منتبهًا للأفق.

كانت إحدى المجموعات هي التي بدأت في الصياح بينما ينهض الأطفال واقفين، وهو ما نبَّه الرجلَين المسلَّحين اللذين أنزلا أمان بندقيتيهما الكلاشنكوف، وشدَّا الأجزاء إلى الخلف. وضع حزرات باناراس يديه على جبينه كغمامة، لكنه لم يرَ شيئًا. في المقابل صرخ الواقف بجواره في صاحبه:

- لا بدَّ أنه هو، انظر، إنه آتٍ من هناك!

من بعيدٍ كان ثمة ما يشبه العصفور يقترب في صمتٍ صوب الربوة التي وقفوا عليها. أخذ حجمه يكبر في السماء، وحين تبيَّن لهما أنه عبارة عن طائرة صغيرة، رفعا السلاحَين إلى كتفيهما، وشرعا يطلقان النار. رسمت ماسورتا البندقيتين قوسًا في السماء لبضع ثوانٍ. قال باناراس في نفسه:

- لم يكن ذلك ضروريًا، تدريب رماية عديم الجدوى قد يجلب عواقب وخيمة.

لكنه تذكر الاجتماع الذي عُقد قبلها ببضعة أيام مع (مجلس الشيوخ). لقد ظل وحده يشير إلى أن الأمر لا يمثِّل أي تهديد. أفرغ الرجلان خزنتَي سلاحيهما، بين دوي الطلقات والارتطام الناعم لفوارغها بالرمال. لم يحدث شيء في البداية، لكن الطائرة أخذت في الانحراف عن مسارها شيئًا فشيئًا وبدأت تتأرجح، ثم فقدت ارتفاعها في السماء وسقطت بهدوء على بُعد خمسمئة قدم.

أخرس دوي الأسلحة صراخَ الأطفال، لكنَّ أصواتهم جاءت واضحةً حينما خيَّم الصمت مرة أخرى. لا يمكن التكهُّن إن كان ذلك أسفًا على فقرة اللهو الصباحية الضائعة أم تشجيعًا لتصويبات الصيادَين.

بـدؤوا في الركـض نحـو المـكان المفـترض لبقايـا الجهـاز لكـن الرجلـين تكفَّـلا بمنعهم .

- انصرفوا، انصرفوا من هنا! ارحلوا!

سار المسلحان نحو مكان سقوط الطائرة.

رجـع حـزرات بانـاراس إلى البيـت وحيـدًا، وهـو يهـز رأسـه قلقًـا؛ كان متيقنًـا مـن أن مـا حـدث، أيًّـا كان صاحـب ذلـك الجهـاز، سـيؤوَّل كموقـفٍ عـدائي.

***

6

هناك لعبة مسلية فكْرتها تحويل كلمات إلى أخرى: في كل خطوة تغيِّر حرفًا واحدًا، وهكذا، فعلى سبيل المثال، تتحوَّل كلمة "محبة" إلى "عداء"، بعد مرورها بـ"مواء" و"نداء" مثلًا[1]؛ يفوز من يستطيع تحقيق الهدف في أقل عددٍ من الخطوات، يمكنكم تجربتها.

أشك في إمكانية حدوث ذلك في الحياة، بمعنى تحوُّل بعض المشاعر إلى أخرى بمرور الوقت، رغم أن المرء لا يعرف متى بالضبط تتغيَّر الحروف. حينما كنتُ طفلًا بدا لي أبي رائعًا: كان دومًا في مزاجٍ جيدٍ، يلقي النكات، ويمارس حِيلًا كالبودرة السحرية والزجاجة التي حكيت لكم عنها، أو حِيلًا أخرى حيث يخفي ويغير بطاقات لعبة الورق. بمرور الوقت ظل يتحوَّل إلى كائن سخيف؛ بالكاد أراه الآن رغم قرب

(1) الكلمات الأصلية الواردة في الفقرة هي AMOR وODIO ومعناهما حب وكُره، وAPIO وOPIO ومعناهما كرَفس وأفيون، لكننا فضَّلنا في النسخة العربية استعمال كلمات أخرى تتماشى مع فكرة ومنطق اللعبة. (المترجمان)

مسكنه، الكائن على مسافة محطتين بقطار الضواحي. نتلاقى أحيانًا بالصدفة في المحطة، وذات مرة تحاشى كلٌّ منا الآخر متظاهرًا بعدم رؤيته. منذ سنوات مسَّد لي شعري وعانقني، لكن ما إن أصبحت في طوله صرنا نتبادل الأسئلة عن أحوالنا، ونتحادث عن الطقس وتلك الأشياء المعتادة. في كل مرة أجده قد ازداد حزنًا وعجزًا؛ الأمر لا يسرني، ولكنه يليق به.

أحيانًا تحدث لي أشياء غريبة. منذ أيام ذهبت إلى المكتبة لإعادة بعض الكتب، كنت أعرف أنني تأخرت قرابة الشهر عن الموعد، لذا توقعت غرامة صغيرة أو ما شابه عند إعادتها. قبل المرور على طاولة الإعادة والاستعارة صعدت إلى الصالة واخترت كتابين آخرين، وبينما أعيد الكتب المقروءة، أخبرني الفتى المسؤول بعدم إمكانية استعارة الكتب الجديدة، فاستأت بشدة. قلت حسنًا، أتفهَّم مسألة الغرامة، لكنهم لا يملكون الحق في منعي من القراءة. أجاب بأنها القواعد فأثرتُ بعض الجلبة غير عابئ بمن ينتظرون دورهم. طلبت الاطلاع على تلك القواعد اللعينة، فقال لي إن في إمكاني التحدث مع مديرة المكتبة لو أردت.

بعد وقتٍ قصيرٍ وجدتني في مكتب سيدة أصغر من أمي، ترتدي النظارة المعهودة لأمينة المكتبة معلَّقة حول عنقها. بدأتُ بإخبارها بأن القراءة حقٌّ، وأنه ليس في وسعها أو في وسع أي شخص آخر منعي من استعارة كتب مكفولة للجميع، وأنني على استعدادٍ للإبلاغ عن سوء معاملتهم. كانت تبتسم بينما أجادلها بكل تلك الأمور، وأعطتني انطباعًا بأنها مستمتعة برؤيتي أستشيط غضبًا. دعتني إلى الجلوس، وبدأت في طرح الأسئلة عليَّ كأنها تُجري استقصاءً: هل أحب القراءة؟ ما نوعية الكتب التي أقرأ؟ كم من الوقت تستغرقني قراءة كتاب؟ كم مرةً في الشهر أرتاد المكتبة؟

أجبتُ على مضض، وتوصَّلت إلى أن ذلك الإهدار للوقت هو الغرامة التي وجب عليَّ دفعها، وبعد نهاية الاستجواب بدأت تشرح لي شيئًا عن نادي قراءة للشباب يمكنني المشاركة فيه، وأنهم يجتمعون مرةً في الشهر. هدأتُ وقلت لها لا، إنني لست مهتمًّا بالأمر، وإنني أحب القراءة بمفردي. أصرَّت قائلة:

- فكِّر في الأمر، أؤكد لك أنه قد يكون ممتعًا.

أجبت محاولًا أن تحسن فهمي:

- لا، شكرًا.

على الفور تذكرت ألعابي. الهدوء هو الإستراتيجية الأفضل، فكرت في ذلك. نجحت في تحكمي الذاتي آخذًا في الاعتبار حساسية تلك السيدة إزاء ثباتي الانفعالي. قلت لنفسي: "والآن، الضربة القاضية...".

وقفت وأخذت الكتابين، وسألت بابتسامة المنتصر:

- حسنًا، يمكنني أخذهما؟

- لا، العقوبة خمسة عشر يومًا من دون الانتفاع بخدمات المكتبة.

اعترضت:

- لكن لماذا؟!

أجابت بهدوء:

- لأن التأخير يمثِّل عدم احترام لباقي المنتفعين. كان في إمكانك المجيء منذ فترة لتجديد الاستعارة و...

ودون أنا أتركها تنهي محاضرتها، رزعتُ الكتب على المنضدة، وصرخت فيها أن في إمكانها إعادتها حيثما يجب. خرجت من هناك حانقًا، لم أعبأ بنظرات الناس لي في أثناء مرورهم أو باقتراب الحارس قلِقًا بسبب الضجة. شعرتُ بالحنق في طريق عودتي إلى المنزل. انتابتني رغبة في العودة

بأنبوبة غاز لأضرم النار في مستودع الكتب اللعين ذلك، لكنني أدركت لاحقًا أن تلك المرأة على صوابٍ؛ على المرء الالتزام بالقواعد، تمامًا كما في الألعاب.

في ذلك المساء تلقيتُ مكالمة هاتفية من المكتبة. دعتني المديرة مرة أخرى إلى نادي القراءة الذي تقيمه، إلى جلسة ستُعقد بعد يومين. كررتُ رفضي ومسألة أنني أقرأ وحدي. حينها أغرتني:

- أحد الكتب التي قُرئت هو (عقد مع الإله) لإيسنر، أظن أنك تعرفه.

بالطبع أعرفه! إنه أحد الكتب التي أعدتها، قرأته خمس مرات على الأقل، وأحفظه عن ظهر قلب.

كان من الصعب أن أجيب مرة أخرى:

- لا، شكرًا.

ردَّت المديرة قبل أن تغلق السماعة:

- لا بأس، ليكن في مرة أخرى.

حسنًا، ستقولون إنني كنت أستطيع الذهاب. ليس الأمر أنني أتوق إلى المكوث محتجَزًا في مكتبة مع فتية آخرين (أظن أن الغالبية فتيات) لأتحدث عن الكتب، لكنها كانت فرصة للحديث عن تلك القصص التي أحبها وعن (كوميكس) أخرى شبيهة. أحب (الكوميكس) والروايات المصورة بصورة خاصة؛ إن كان في وسعي اختيار مهنتي المستقبلية لاخترت أن أكون رسامًا.

لم أخرج، مكثت في المنزل كالعادة. أحيانًا أخرج للتمشية في الجوار، وإن كنت أتمشَّى وحدي، لكن إن خرجت في وقتٍ غير اعتيادي تبدأ أمي في طرح أسئلتها: إلى أين أذهب؟ من أقابل؟ في أي ساعة سأعود؟... إن كان الجو باردًا تطلب مني أن أدفئ نفسي، وإن كان حارًا تنصحني

بـأن أسـير في الظـل. أدرك أبي عـلى الأقـل أننـي صرت أطـول منـه لكـن أمـي... مـا زالـت تعتقـد أننـي ابـن تسـع سـنوات، السـن الـذي غـادر هـو فيهـا البيـت.

يسـمونني (القاتـل)، لكننـي سـجين أمـي، تُقيـدني بقيـودٍ خفيـة لكنهـا شـديدة كالحِبـال: ألمهـا، ذنبهـا، كآبتهـا، هجرانهـا...

يومًا ما سأضطر إلى قطع تلك القيود، لكن ماذا سيحدث لها؟

وإلى مَـن يمكننـي شرح كل هـذا؟ في هـذه الأثنـاء، لا بـد أن العـالم مـن حـولي يعتقـد أننـي شـخص غريـب الأطـوار.

***

7

ثلاثة أيام أسبوعيًا، من السابعة إلى الثامنة تقريبًا، أخرج للركض في الحي. منذ سنتين قررت أن تكون هذه حُجتي للهروب من المنزل، رغم أنني أستغلها أيضًا لتحريك مؤخرتي، فأنا أقضي معظم اليوم جالسًا في المدرسة أو للقراءة أو أمام الكمبيوتر.

إنه ربيعٌ رطبٌ والأمطار تنهمر هذه الأيام، أحب المياه؛ فتحت المطر تتقلص أصوات الناس كأنهم خائفون نوعًا ما.

أحب الركض شاعرًا بطقطقة القطرات على المعطف، أسمع حفيف عجلات السيارات على الأرض المبلولة وغير ذلك. أحيانًا أحاول التوقف عن التفكير، لكني أعتقد أن الأمر مستحيل.

حينما رحل أبي عن البيت، اضطرت أمي إلى البحث عن عمل. حتى ذلك الحين كنَّا نعيش حياة ليست بالسيئة ولا بالجيدة، لكن الأمور تفاقمت حين أصبحنا أنا وأختي وأمي بمفردنا، رغم أنك في

سن التاسعة لا تدرك تفاصيل الأمور بطبيعة الحال. في هذا الصدد لم يكن تصرف أبي سيئًا بالكامل، فقد استمر في دفع الرهن العقاري للبيت كأنه يعيش فيه، رغم أن راتبه لم يكن ليكفي.

تتميز الآلات بشيء عظيم إذا ما قورنت بالبشر: أنها تنطفئ وتتوقف عن العمل، ثم تُشغَّل وتصبح جاهزة للعمل مرة أخرى. وددتُ لو أن لي مفتاحًا كهربيًّا في دماغي يُمكِّنني من اتخاذ وضع (standby) للتنفس والنَّظر والقراءة وهذه الأشياء، من دون الحاجة إلى الانشغال بأمورٍ تطرق على رأسي في بعض الأحيان. لو تمكَّن أحد من سماع أفكاري لظن أنني مصاب بالهوس، وغالبًا ظنه في محلِّه.

مزايا أخرى للآلات: تفتقر إلى الندم والوساوس والمسؤوليات.

أنا متأكد أن الأمور ستتعقد حقًّا على البشر وقتما تصبح الآلات أذكى وتطوِّر شيئًا يشبه المشاعر، وفي الحقيقة أظن أنه لم يبقَ الكثير على ذلك. قصة فيلم (Terminator) خيالية بالطبع، ولا أظن أن الأمور ستسير على هذا النحو، لكنها ستتغير، هذا مؤكد.

وددتُ لو أن لأجهزة الكمبيوتر قانونًا أخلاقيًّا، يحدد أي الأشياء جيد، وأيها سيئ؛ سيجنبك هذا الكثير من المشكلات.

منذ عامين ركَّبوا شبكة إنترنت داخلية، وأعطوا أرقامًا سرية للمدرسين لتسجيل الحضور وما شابه. في البداية تحوَّل الأمر إلى مهزلة، فما كان يُنجز في قائمة ورقية خلال دقيقة بات يستغرق عشرًا لأن بعض المعلمين تعثروا مع الآلة اللعينة. كنت أموت ضحكًا عند تذكُّري حصص الأكاديمية. حسنًا، بمرور الوقت أخذت الأمور تتيسر.

لكن مسألة شبكة الإنترنت الداخلية أمرٌ خطير حقًّا، ولا أعرف كيف يعقل أن يترك شخص ما موقعه الإلكتروني عرضةً للمتلصصين من دون إحكام قبضته عليه.

فور معرفتي بعنوان موقع المدرسة لم يستغرقني الأمر سوى ساعتين للدخول والتجسس. كل شيء مكشوف! هناك حمقاوات يخصصن بريدهن لمواعدة حمقى وتبادل الصور والعناوين التي ربما تُستخدَم لابتزاز أكثر من شخص، القيل والقال بين شِلل المدرسين التي يقومون فيها بتقطيع فراء الزملاء الآخرين، وتناقل الامتحانات من هنا إلى هناك... يتعامل الناس هناك معتقدين أن الأمر آمن، لكنني شعرت أحيانًا بأنه أشبه بفناء جيران بيتي، وأنني الرجل الخفي ويمكنني الجلوس بجانب أحدهم لأسمع أكثر اعترافاته خصوصية.

أعترف أنني قضيتُ شهورًا أخصص بعض الوقت لإلقاء نظرة، بسبب هوسي بمعرفة ما لا يجب عليَّ معرفته. كان مدرس الكيمياء، على سبيل المثال، يكتب امتحاناته في منزله ويرسلها إلى المدرسة لطباعتها هناك على ما أعتقد. الأمر أشبه بالطرق على بابي وإعطائها لي في يدي. إحدى مدرِّسات التربية البدنية تستقبل في منزلها بعض الأولاد والبنات من المرحلة الثانوية، وعليها الاحتراز الشديد حيال ذلك؛ حين رأيتها لاحقًا في ساحة الألعاب فهمت بعض إشاراتها التي طالما مرَّت في غفلة مني.

بمرور الوقت بدأت أشعر بالقرف من تجسسي، كان الأمر أشبه برؤية أوساخ الناس، رغم أنني أكثرهم اتساخًا.

هذا ما أقصده عندما أقول إنه من الأفضل أن تكون للآلات معايير أخلاقية. إن كنت ستدخل إلى موقع محظور، يجب على الكمبيوتر منع إمكانية وصولك، وبهذا فلن تكون مسؤوليتك أخذ ذلك القرار.

لطالما تفاخرت أمام زملائي بكثرة ما أعرفه عن كل هذا، أما الآن فلا يخطر ببالي حتى إخبارهم بما أستطيع فعله.

كنت في الصف الثاني حينما طلب مني ولد أكبر مني بقليلٍ في المدرسة أن (أكرُك) له لعبة. لم يستغرقني الأمر نصف ساعة حتى.

سلَّمته إياها في اليوم التالي، وأهدى إليَّ ساعة خائبة الرجاء من النوع الذي له حزام بلاستيكي أسود ومليء بالأرقام، ثمنها عشرة يوروهات في سوق السلع الرخيصة. انتشيت في الأيام التالية؛ كان عملي البطولي الأول أمام الزملاء!

بعدها بأيامٍ قليلة طلب مني أن أفعل نفس الشيء لولدٍ آخر، وبعدها مع ثالث، وبعدها مع (Quark Xpress)، أظن أن اسمه كان كذلك. في كل مرة أهدى إليَّ شيئًا: آلة حاسبة علمية، راديو بساعات، قلمًا بمؤشِّر ليزر... كان زملاء المدرسة مهووسين بتلك الأجهزة "الرائعة"، ويطلبون مني أن أنسخ لهم ألعابًا، أن أصلِّح لهم أجهزتهم المعطلة، أن أركِّب لهم بطاقات الصوت... وفي المقابل يهدون إليَّ شيئًا، لأنني كنت أقول لهم عبارة كررها أبي، وبدت لي مهمة جدًّا: "لكل شيء ثمن". أتذكر أن أحد الأولاد امتلك أبواه فَرشَة فاكهة في سوق السلع الرخيصة أذهب إليها مع أمي. كنا نشتري مجانًا كل سبت من كل شهر ولم تكن أمي تفهم لماذا؛ بدت لها ببساطة عائلة سخية جدًّا معها.

مثلما يحدث في الحكايات؛ فالسعادة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد. ذات يوم جاء شخصان إلى المدرسة للسؤال عني. أخذاني إلى مكتب المدير واستدعيا أمي. كانا شرطيَّين. اتهماني بالاشتراك مع شبكة للنصب أو شيء من هذا القبيل، حينها عرفت أن شقيق الصبي الذي طلب مني كسر حماية تلك البرامج لديه محل إلكترونيات وحواسيب. بدأ مشروعًا للبرامج المضروبة واستطاع بيعها لا أعرف بِكَم مئة ألف يورو! علمت بذلك في المحكمة، كما علمتُ أن كليهما اتهمني بأنني أكاد أكون العقل المدبِّر للعملية، استغلَّا كوني قاصرًا ليحاولا النجاة بنفسيهما من العاصفة.

بالنسبة إلى أمي المسكينة لم يكن ذلك هو كرب حياتها لأنها قد لاقت مصائب أكبر، لكنها ظلَّت ترتعب فترةً إن دقَّ أحدهم الباب أو سمعت جرس الهاتف. طالبَ أحد المحامين بأن يدفع أبي وأمي رقمًا خياليًّا فرأت نفسها بلا مأوى تمسح السلالم لآلاف السنين. اتضح كل شيء ولم يحدث أكثر من ذلك، رغم أن إحدى القاضيات عنَّفتني بشدة، وجعلتني أعيد الأشياء عديمة القيمة التي أهدوها إليَّ، سلَّمتها في كيسٍ ورقي، كانت كلامًا فارغًا. حينذاك لم تكن الساعة تُظهِر الوقت، ولا قلم الليزر قادرًا على إصدار بصيص من الضوء.

لذا لا أستغرب القلق الذي ينتاب المرأة المسكينة كلما اتصلت (تلك)، مَن يدري ما يدور في مخيِّلتها.

***

بعدما دخل شقته بثانيتين، بدأ (موسكيتو) في خلع ملابسه. وضع على الطاولة بطاقته التعريفية المُعلَّقة حول عنقه، وخلَّف وراءه -بطول الصالون- صفًّا من الملابس، من قميص زيه الرسمي حتى سرواله الداخلي النظامي.

ذهب إلى الحمام وفتح صنبور الاستحمام، وبينما ينتظر المياه حتى تدفأ، فتح الكمبيوتر. كان قد اكتسى بالصابون حينما تناهى إلى الحمام الصوتُ الآلي:

"You have seven messages".

بينما يجفف نفسه مشى حتى المطبخ، وأخرج علبة بيرة من الثلاجة، فتحها وارتشف منها رشفة كبيرة. ألقى بالمنشفة على الأرض في منتصف الصالون وجلس أمام الشاشة. أخذ رشفة أخرى وهو يفتح صندوق البريد الإلكتروني.

قرأ الرسائل بسرعة، وهو يتحقق من عدم وجود شيء عاجل. نظر إلى الساعة وقدَّر أنه لا يزال لديه عشر دقائق على المعركة. أخذ البنطلون من الأرض وأخرج الهاتف المحمول من جيبه وأجرى مكالمة: مرحبًا يا عزيزتي، أنا في البيت... حسنًا، كالمعتاد... وأنتِ؟... آها... إذن في السابعة والنصف؟... جيد، سأكون هناك...

فتح أيقونة (Internet)، دخل إلى الـ(DAW) وأدخل بياناته التعريفية. قبل أن يبلغ مقصده تحتم عليه تأكيد الـ(Password) الخاص به مرتين أخريين، خاضعًا لإجراءات أمنية شديدة، وفي النهاية دخل إلى الموقع المنشود، وكتب: C-H-A-N-D-R-A.

كانت هناك ساعة كبيرة تَشغل الشاشة بأكملها، وتشير إلى أنه لم يتبقَّ سوى أربع دقائق على بداية اللعبة. أنهى البيرة، وطقطق أصابعه ووضع يديه على قفاه وهو يقول بصوتٍ عالٍ: "لنرَ إن كنتَ

بهذه المهارة التي يتحدثون عنها يا فتى". أغمض عينيه، وحاول التركيز متجنبًا صورة كارول عاريةً مثله.

قبل دقيقة من الموعد رنَّ صوتٌ تنبيهيٌّ، وظهر مؤقت يعمل بشكلٍ تنازلي: 59، 58، 57... حين وصل إلى صفر تغيَّر المشهد؛ تلاقت صورتان وجهًا إلى وجه على خلفية بيضاء، وحملَ هو الرقم واحد. حيًا كلٌّ منهما الآخر. بعدها بثوانٍ، ظهر نصٌّ يُعْلِمهما بالمهمة، ابتسم العريف نورث فور قراءته.

الأمر يتعلَّق بفخٍّ، هكذا فكر موسكيتو؛ جعلوا المستوى أسهل من اللازم، ولم يكن ثمة مهرب لمنافسه. إنه يعرف المكان؛ مسحٌ ثلاثي الأبعاد لمركز تدريب كان قد اجتاز فيه تدريباته البحرية. قال لنفسه: "ما لم يكن هذا الصبي على معرفة بالمكان، وهو أمر مستحيل، فسأقضي عليه في وقتٍ قصيرٍ". امتلأ ذلك المكان بالفخاخ وقد أهَّلوه لاكتشافها؛ يحفظ بعضها عن ظهر قلب، كالحائط ذي الخندق المائي السفلي أو النافذة المفخَّخة بالمتفجرات. شرد ثواني بينما يزحف تحت أسلاك شائكة: كان في استطاعته تقديم موعده مع خليلته بنصف ساعة؛ إذ لا يحتاج إلا إلى عشر دقائق للإجهاز على خصمه، إضافةً إلى أنه يعرف مكان اختبائه، وإلى أي مدى يمكنه الوصول. لم يكن عليه سوى الالتفاف حوله ومفاجأته من الخلف... ثم "طاخ!".

لكن بعد عشر دقائق من تسلق الحوائط، واجتياز نوافذ مفخخة، وإبطال لغمٍ مدفون، والقفز بين سطحَي مبنيين، بدأت شكوك جدية تنتاب العريف نورث. كان قد وصل إلى المكان ولم يجد أثرًا للعدو، وما زاد الأمر سوءًا أنه بينما يراقب من إحدى الزوايا، مرَّت طلقة عن يمينه وهدمت جزءًا من الحائط، وأصابت إحدى الشظايا الحجرية خدَّه فصرخ: !Shit

حلَّ الظلام في اللعبة فارتدى تشاندرا نظارة الرؤية الليلية ذات الأشعة تحت الحمراء. تمكَّن من الرؤية البانورامية بزاوية 360°، مختبئًا خلف سور السطح، ولم يرصد أدنى أثرٍ حراري. فكَّر: "لا بُد أن يكون الولد متخفِّيًا ببراعة، أنا لا أراه، ولكنه بالمثل لا يراني". وفي أثناء ذلك، تناهى إليه أزيز آخر عبر أذنه اليسرى؛ سقطت القذيفة، بصوتٍ مكتومٍ، خلفه بمترين.

بعدها بربع ساعة كانت اللعبة قد انتهت. تلقَّى الشخص الذي لعب به العريف نورث طلقةً في ساقه بينما يتسلَّق سلَّمًا في إحدى الغرف. كان على الرصاصة اجتياز شباك صغير يطل على الغرب، نحو جهة غروب الشمس بالضبط. بعد ذلك بقليلٍ وفي أثناء صعوده الأليم إلى أحد الأسطح انفجرت بجانبه قنبلة يدوية وانتهت المباراة؛ وبما أن تلك الأسلحة لم تكن في حوزة الصبي في بداية المعركة، فقد استنتج أنه فقدها في أي من تلك الفخاخ التي يخفيها هذا المركز التدريبي اللعين. أطلق عليه الصبي الرصاص خمس مرات، ومع ذلك، لم يحظَ موسكيتو إلا بفرصة لإطلاق رصاصتين.

كان يتصبَّب عرقًا حينما أوقف اللعبة. ذهب إلى الاستحمام مرة أخرى، ودون أن يجفف نفسه تقريبًا جلس من جديدٍ وفَعَّل خاصية التتبُّع بالتحريك السريع لتحليل مسار اللعبة من منظور الصبي. كان ماهرًا بغباء! أين تعلَّم التحرك هكذا بحق الشيطان؟

ارتدى ملابسه المدنية، وعدَّل وضع ساعته على معصمه. في أثناء نزوله السلالم أجرى مكالمة: حبيبتي، سأتأخر قليلًا؛ اضطررت إلى إعداد تقرير قبل الخروج...

***

8

تشاندرا أحد أفضل المنافسين الذين واجهتهم على الإطلاق، خسر في المرات الثلاثة التي تنافسنا فيها لكنه يقترب مني في الـ(scores)؛ سيهزمني يومًا ما.

من حين إلى آخر يطلبون مني إعداد تقرير عن اللعبة. لديَّ شعور بأنهم يسجلون مبارياتي، لأنهم في بعض الأيام يسألونني بعد جلسات اللعب عن تفصيلة هنا أو هناك ولا أتذكرها أصلًا. لا بدَّ أنهم يظنون أنني أتبع إستراتيجيات خاصة بي لكن الأمر ليس كذلك، أنا، ببساطة، أستعمل ما في حوزتي وأتبع غريزتي.

لهذا لا أعرف أحيانًا بماذا أجيب عن أسئلتهم.

كتبت إلى كاتارينا لأخبرها بأنني أُفضِّل أن يُخطروني بالبريد الإلكتروني لا الهاتف. أجابتني بأنها ستحاول ذلك، لكن الأمر لن يكون ممكنًا بشكلٍ دائم. شرَحت لي أنهم، بسبب فرق التوقيت، يتصلون بي في

اللحظات الأخيرة حينما تكون فِرق المبرمجين مجتمعة لتحليل تجاربي، وأنه من الأفضل أن ألعب في السادسة مساءً لا في الحادية عشرة ليلًا...

لكن لا، لا يمكن. لحسن الحظ تنعس أمي في العاشرة والنصف، وتخلد إلى النوم، أما في منتصف المساء فإنها تحوم حول باب غرفتي وتربكني.

أتساءل كيف هي كاتارينا؟ لها صوتٌ شاب وتتحدث الإسبانية جيدًا، لكن لوحة المفاتيح لديها لا تحوي حرف الـ(ñ)[1]، وهو ما يعني أنها ربما تعمل في مكان ما بالولايات المتحدة؛ ربما هي مكسيكية أو لأبوين لاتينيين، أتكون سمراء البشرة، مختلطة الأعراق، طويلة، ذات عينين سوداوين؟

تروقني نبرة صوتها، لكنني لا أعرف إن كانت ستعجبني فيها أشياء أخرى، لذا أُفضِّل ألا أتعرَّف إليها بشكلٍ شخصي، ربما تضع تقويمًا للأسنان...

أعترف أنني غير ودود نوعًا ما في هذا الصدد؛ إذ يحدث لي مع بعض الأشخاص نفس ما يحدث مع القطط: أحب كينونتها وحركاتها، لكن مواءها يثير حفيظتي، هناك أناس ما إن يفتحوا أفواههم حتى يفقدوا كل بريقهم.

يحدث لي الأمر خاصةً مع الفتيات. أراهنَّ وأفكر في أنهن جميلات، أنهن طيبات وكل ذلك. ينشط الخيال بدوره، لكنهن يبدأن في التحدث بالتفاهات ويثرن رغبتي في المغادرة ركضًا، ويبقى الوضع على لا شيء. تعلمون ما أعني.

بالنسبة إلى الفتيان فقلما يثير أحدهم اهتمامي حتى. في سننا هذا، أغلب ما نطلق له العنان عادةً ما يكون حماقات ذكورية.

---

(1) حرف مميِّز وخاص باللغة الإسبانية وينطق مثل النون والياء مجتمعين. (المترجمان)

لـو كنـت إلهًـا لجعلـت القطـط بكـماء، ولجعلـت قضيـب الرجـال يتشـكَّل بعـد الخامسـة والعشريـن عـلى الأقـل.

ثـم هنـاك بالغـون يخرجوننـي عـن شـعوري. حتـى هـذا الصـف، فـإن مـن درَّسـوا لي في المدرسـة كانـوا رجـالًا، وطالمـا انتهـى بي الأمـر بالتشـاجر معهـم. يظنـون في أنفسـهم الـذكاء ولا يتوقفـون عـن إخبـارك بمـا يجـب عليـك فعلـه. لطالمـا راودني شـعورٌ بأنهـم يضعـون أنفسـهم في تحـدٍّ معـي. أسـوأ أعوامـي كان الصـف الرابـع، حينـما أوشـكوا عـلى طـردي، لكـن الأمـر أننـي لم أحتمـل وجـود أحدهـم فـوق رأسي يراقبنـي دقيقـة بدقيقـة لمـدة سـت سـاعات متواصلـة.

أظـن أن الجميـع يسـتطيعون الحديـث عـن هـادم اللـذات الـذي أذاقهـم الأمرَّيـن في سـنواتهم المدرسـية، في حالتـي كان يُدعـى روبـن بالاثيـوس. انتابنـي شـعورٌ بأنـه حتـى عنـد دخـولي الحـمام كان يمـر ليراقب إن كنـت أتبـول خـارج المرحـاض. لطالمـا أضمـر لي سـوء النيـة، وأظـن أنـه فعـل كل مـا في وسـعه لإفسـاد علاقتـي بباقـي المعلمـين. فكـرت أحيانًـا في أنـه مثليُّ الجنـس مكبـوت، أو متحـرش بالأطفـال يـود لـو أكـون خاضعًـا وأُسـدي إليـه معروفًـا. درَّس لي اللغـة الإسـبانية، ولم يملـك خيـارًا سـوى أن يجعلنـي أنجـح لمهـارتي فيـما يخـص الكتابـة والقواعـد رغـم كسـلي، لكـن في تلـك السـنة لم أشـعر برغبـة في المذاكـرة، ولم أتقـدم لامتحانـات شـهر يونيـو، لـذا نجحـت فقـط في ثـلاث مـواد، منهـا مـادة اللغـة الإسـبانية وذلـك لمجـرد الانتقـام، وجعلـوني أعيـد السـنة.

لـو أن هنـاك شـيئًا أكرهـه فهـو قولهـم "أنـت ذكي". لطالمـا قـال أبي إننـي كنـت ألمعيًّـا في صغـري ولذلـك سـأصبح عـازف بيانـو. بعدهـا، في المدرسـة، تـأتي اللحظـة التـي تـدرك فيهـا أنـك ماهـر في أشـياء مـن دون بـذل الكثـير مـن الجهـد، ويـأتي أحدهـم ليضـع لـك ملصقًـا عـلى جبهتـك.

حينما كنت في المرحلة الابتدائية، قالوا لي ذات مرة إنني ذكي، لكن الأمر لم يزعجني. بدوا كأنهم لا يعيرون الأمر اهتمامًا، لكن في المدرسة الثانوية بات الأمر تعذيبًا. "بما لديك من ذكاء" كان لها نفس وقع "لو رآك أبوك". توقع الجميع أن تكون وديعًا، وأن تحصل على درجات جيدة. يبدو الأمر مع بعض المعلمين، حينما يعطون درجات جيدة، كأنهم يعطونها لأنفسهم.

لا يُعقل أن تكون بهذا الذكاء، شخص ذكي مثلك، بما لديك من ذكاء، بما أنك ذكي إلى هذا الحد... هي عبارات سمعتها ملايين المرات في هذه السنوات؛ وتشعرني بالقرف.

ما يلي هذه العبارة، دومًا، يكون ابتزازًا.

***

9

البارحة، السبت، ذهبت إلى السينما مع أناس من المدرسة، كي لا يعتقد أحد أنني ابن مقرض[1]. عادةً ما يخرج رفقائي الحاليون في قُطعان كبيرة العدد، من عشرةٍ أو خمسة عشر، لكنني أرتاح مع مجموعة صغيرة ممن كانوا زملائي في الصف الرابع. إنهم الآن في الصف الثاني الثانوي، وإن لم أرسب لكنت أنا أيضًا على وشك أن أخلع من هناك، رغم أنني كذلك لست مستعجلًا؛ إذ لا أعرف ماذا سأفعل بعد ذلك.

نذهب عادةً إلى سينمات في وسط المدينة، لأنهم في السينمات التجارية الوضيعة في منطقتنا لا يعرضون سوى التفاهة الرائجة. أما في نواحي ميدان (لوس كوبوس) فعلى الأقل هناك فرصة للاختيار.

(1) حيوان من الثدييات يقضي من 14 إلى 18 ساعة من يومه نائمًا. (المترجمان)

كانت الخطة أن نشاهد فيلمًا لا أتذكره، لكن عندما رأيت أنهم في إحدى الصالات يعيدون عرض فيلم (القالس مع بشير)[1]، فيلم الرسوم المتحركة المبني على (كوميك) قرأته منذ فترة، حاولت إقناع الآخرين بدخوله. كنت قد حمَّلته من على الإنترنت بعد فترة قصيرة من عرضه، لكنني أردت مشاهدته على شاشة كبيرة، ورغم أنني نشَّفت رأسي، لم أفلح إلا في إقناع أندرِس.

ما إن بدأ الفيلم حتى أدركت أشياء حدثت لي ولم أنتبه إليها. على سبيل المثال، مسألة الـ26 كلبًا[2]، الرقم ستة وعشرون هو رقم يلاحقني؛ إذ وُلدت في يوم 26.

لكن أكثر ما لفت انتباهي موضوع صنع الذكريات: أن الناس عادةً ما يملؤون الفراغات في ذاكرتهم متخيلين أحداثًا لم يعيشوها، مختلقين أشياء بعينها وغافلين عن أخرى.

أتساءل في بعض الأحيان إن كانت بعض الأشياء التي أتذكرها قد حدثت أم لا. أحيانًا في الصباح، عندما أمرُّ من أمام غرفة أختي الهادئة، التي نحتفظ فيها الآن بالأشياء القديمة، يبدو لي كذبةً أنها عاشت معنا، وأضطر إلى بذل جهدٍ لاستعادة الأحداث التي تشاركناها معًا.

أحببتها وأحبَّتني، وما حدث كان فاجعةً، كان ظلمًا.

لم ينل الفيلم إعجاب أندرِس، بدا له رتيبًا، لكنني وعدتُ نفسي بمشاهدته مرة أخرى، لأنه يعج بالتفاصيل. وددتُّ لو كانت إيلينا هي مَن رافقتني، لكنها فضَّلت الذهاب مع المجموعة الأخرى؛ أمرٌ مؤسف. ما لا أعرفه هو كيف كانت ستتفاعل مع اللقطات الإباحية

---

(1) فيلم وثائقي من إنتاج إسرائيلي ألماني فرنسي، يتحدث عن مذبحة صبرا وشاتيلا التي حدثت في أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان، من وجهة نظر جندي إسرائيلي. (المترجمان)

(2) كان أحد الأشخاص في الفيلم يرى في نومه 26 كلبًا يلاحقونه ويريدون قتله. (المترجمان)

التي تظهر، ومع كل هذا العنف في الفيلم الذي تجاوز الساعة. أعترف بهذا لنفسي لتقليل إحباطي.

أنا معجب بإيلينا، لكنني غير مرئي بالنسبة إليها، لا بد أنني أبدو لها صامتًا وانطوائيًا للغاية. أنا ومَن على شاكلتي من الفتيان لسنا على الموضة، في الواقع، لم نكن كذلك مطلقًا.

عادةً في بدايات الشهر أمرُّ على المكتبة لألقي نظرة على المجلات التي تأتي. كان في إحداها مقالٌ بعنوان (عجائب النظام الشمسي). بخلاف الينابيع الحارة العملاقة والوديان القادرة على احتواء محيط، جذب انتباهي مكانٌ على القمر لا تغيب عنه الشمس أبدًا، لا أعرف بسبب أي غرائب في المدارات القمرية والأرضية، يسمونه (قمم الضوء الأبديِّ).

من بين كل الفتيات التي أعرفها، إيلينا هي الوحيدة التي كنت لآخذها إلى تلك القمم، رغم اعتقادي بأنها لن ترغب في الذهاب معي.

حدث لي أمرٌ آخر في السينما، وهو أنه في بعض المشاهد راودني شعور بالقدرة على التحكم في الأحداث، وفي نفس الوقت شعرت بالعجز لعدم نجاحي في فعل ذلك. الفيلم مستوحى إلى حدٍّ ما من أحداث حقيقية، ورسومُ الشخصيات التي تظهر فيه كانت مجرد رسوم، هذا صحيح، لكنها تجسِّد أناسًا من لحم ودم، والدقيقة الأخيرة من الفيلم مذهلة، بوجود ضحايا لهم جلد ووجوه ودماء حقيقية؛ شعرتُ بالاشمئزاز قليلًا حين تذكرت اسمي المستعار في الألعاب، وتحتم عليَّ تذكير نفسي بأنها ليست أكثر من ذلك، ألعاب.

لم يكن الوقت متأخرًا جدًا حين انتهى الفيلم، لذا قررنا الذهاب لتناول العشاء في أحد مطاعم البيتزا حيث تأخروا كثيرًا في خدمتنا. جلسنا قرب الحادية عشرة وبدأتُ أتوتر. كانت نيتي أن آخذ قطار الضواحي الأخير الذي يأتي في الثانية عشرة.

سألني أندرِس بعدما تأكد من أنني نظرت إلى ساعتي عدة مرات:

- ماذا بك؟

أجبت محاولًا الابتسام:

- لا شيء.

ردَّت مارتا:

- أعتا يا عم، إنه السبت، أما زلت تسمع كلام أمك وتعود إلى البيت مبكرًا؟

كنت قد نسيت أن رفاقي القدامى يعرفون القليل عني، لكن ليس القليل جدًّا. غمغمتُ بإجابة لم يصدقها أحد، دون أن أستطيع تجنُّب احمرار وجهي حتى الحاجبين.

كان العشاء والحديث وكل شيء جيدًا، لكنني لم أكف عن التفكير في أمي. فكرت في العديد من المناسبات أن أطلب استخدام هاتف أيٍّ من أصدقائي وأتصل بها، لكنني قلت لنفسي إن ذلك لن يكون ضروريًّا، وإنني أخبرتها بأنني سأعود "متأخرًا قليلًا"، وإن الساعة، على كل حالٍ، تجاوزت العاشرة والنصف، ومن المحتمل أن تكون نائمة...

راح الجميع يفكرون فيما سيفعلونه بعد انتهاء المرحلة الثانوية. أوليتُ اهتمامًا خاصًّا لمعرفة ما تريده إيلينا؛ هي ذكية وتحب الحيوانات والكل مقتنع بأنها ستكون طبيبة بيطرية جيدة. فاجأني الإحباط الذي بدا طافحًا على مشروعات رفقائي القدامى.

قالت إيلينا:

- طبيبة بيطرية؟ أُف! عليَّ أن أحصل على 8 في الاختبارات، وسوف أهلك نفسي خمسة أعوام في الدراسة، لكي أعمل مرمطونة في أي عيادة، هذا لو كنت محظوظة؛ حالما أنهي الدراسة سأحصل على شغلانة في متجر للملابس؛ ستعطيني خميرة جيدة للبدء.

قال أبِل:

- أعتقد أنني سوف أحصل على دبلومة، فلطالما حلمت بأن أكون فيزيائيًا.

قالت مارتا:

- أنا سأتجه إلى السياحة، فلطالما فكرت في التخصص في إحدى اللغات كخطوةٍ لأصبح مترجمة.

قال أندرِس:

- أما أنا، فليست لديَّ فكرة حتى الآن.

قال أبِل:

- أنت، على الأقل، لديك عام لكي تفكر في الأمر يا عم، سوف ترى أن العام القادم سيكون خراءً؛ سيخنقنا الأساتذة طوال السنة بالامتحانات وشرح المنهج.

سألتني مارتا:

وهل ستتجه إلى مجال الكمبيوتر؟

أجبتها:

- مستحيل! أودُّ أن أكون رسامًا.

قلتها دون تفكير طويل، بسبب الفيلم الذي شاهدته لتوِّي بلا شكٍّ.

سخرت إيلينا:

- أحا، هل ظهرت لك العذراء وصنعت معجزة؟ رسام، أنت؟! ألم يكن الرسم أصعب الأمور عليك!

أجبت:

- أجل، هذا الرسم الفني، أما الرسم الآخر...

واسترسلتُ في الكلام من دون اقتناع، متحدثًا عن (الكوميكس)، عن الروايات المصوَّرة، عن الرسوم...

سألني أندرِس:

- وهل يجلب هذا مالًا؟

في الكثير من الأحيان، تنتهي محادثات الشُبَّان في مثل عمرنا بالنقاش حول المال. لقد عمل أجدادنا جاهدين لتحسين معيشتهم، ودافع أبناؤهم عن أنفسهم جيدًا إلى حدٍّ ما، لكننا نحن -أحفاد ذلك الجيل الأول الذي جاء إلى هنا، إلى العيش في منازل متهالكة وأكواخ ليس بها حتى موضع للتغوط- غرقنا في الشكوك حول مستقبلنا. هناك من يقول إننا أسأنا التعوُّد، وإن عصر الأموال السهلة والسيارات الفارهة قد انتهى، وربما يكون على حق.

بخلاف مسألة المال تحدثنا في موضوعاتٍ أخرى بالطبع. كان واضحًا منذ بداية السهرة أن إيلينا وأبِل يخرجان معًا، ونفس الشيء مع أندرِس ومارتا. كنت أنا الفرديَّ من بين الخمسة. في إحدى اللحظات التي كان يتحدث فيها أبِل مع الفتاتين، أحاط أندرِس عنقي بذراعه، وهمس في أذني:

- وماذا عنك؟ متى سترتبط؟

- أُف، لا أعرف، أظن أنها مسألة فرص؛ كلُّهن في فصلي مدلَّلات ما بين متطلعة ومصطنعة.

قال وهو يبتعد قليلًا، وينظر إلى الخلف:

- أجل، ولكن هناك المزيد من الفتيات حولك، أنا متأكد من أنك لم تتذوقه بعد.

كنتُ على وشك أن أسأل: أتذوق ماذا؟ لكن سرعان ما أدركت مقصده، ومنعني صمتي من ارتكاب تلك الحماقة.

- إنه م-ذ-ه-ل يا عمي!

قالها لي وهو يقترب من جديدٍ، مع تعبير يوحي بالانتشاء.

وددتُ معرفة التفاصيل، أن أعرف مقصده بالتحديد، لكن لحق بنا أصدقاؤنا، وقطعًا لم أجرؤ على سؤاله أمام الآخرين. في الواقع، حتى لو كنا وحدنا في جزيرة منعزلة لما فعلتها كذلك، هكذا هي قطعيَّتي.

تعانق أبِل وإيلينا وتبادلا قبلة على الشفاه. فكرتُ: هل "تتذوقه" هي الأخرى مع أبِل؟ لم أستطع حتى أن أتخيلها عارية.

عدنا إلى بيوتنا بحافلة الواحدة والنصف. بعدها بساعة، دخلتُ إلى المنزل، فتحتُ الباب دون إحداث جلبة.

كانت أمي جالسةً بالروب تشاهد التلفاز.

وتنتظرني.

***

10

لفترةٍ ما اهتممت بتعلُّم أشياء تبدو لي الآن بغيضة: برامج فك الشفرات، أجهزة التنقية، الشواحن، الرافعات، الشفرات المصدرية، اللغويات... كنت أرى شيئًا فأفكر في تحسينه، أجد موقعًا إلكترونيًا ما يجذب انتباهي فأرغب في اختراقه بأي ثمن.

على الرغم من تشفير الأكواد، وحتى حماية الأجهزة بـ(الدونجلز)[1]، فقد استطعت الدخول في أغلب الأحيان، والأهم من ذلك أنني كنت أنجح في الخروج من دون أن أترك أثرًا.

لم أرغب قطُّ في إحداث ضرر، رغم قدرتي على ذلك. عندما تنجح في الدخول إلى أحد تلك المواقع، تشعر كأنك في أحد البنوك أو المتاحف؛

(1) Dongle: اسمه التقني Hasp key، وهو عبارة عن قطعة تُركَّب في أجهزة الريسيفر أو الكمبيوتر، من بين استخداماته حماية أجهزة الكمبيوتر وإضافة خواص جديدة إليها من خلال برامج مُحمَّلة عليه. (المترجمان)

تتصرف دائمًا في دقائق لتسرق ما تريد أو تكسر ما يحلو لك. في الحقيقة، لطالما انتابني الخوف بعد ما حدث مع أمي.

ذات يومٍ شرعتُ في اللعب ورأيتُ أن الأمور تسير معي بشكلٍ جيدٍ. كنت أحمِّل لعبةً ما وأتسلى بها ساعات. منذ الثانية عشرة وحتى الرابعة عشرة من عمري، لم أقرأ كتابًا واحدًا، كنتُ ألعب فحسب، وتعلمتُ الكثير. لم تملك لوحة المفاتيح ولا عصا التحكُّم ولا أذرع اللعب أسرارًا لتخفيها عني؛ كانت امتدادات لأصابعي.

كنتُ في الخامسة عشرة عندما وقعت في يديَّ آخر نسخة من إحدى الألعاب الشهيرة، إنجاز كبير. سرعان ما انتبهت إلى تباطُؤ اللعبة في بعض أدوارها، وأنه عند بلوغ نقطة معينة تدخل اللعبة في حلقة مفرغة تَحُول دون استكمال المهمة، إلا إذا ضغطتَ على سلسلة من الأزرار ليست مذكورة في اللعبة. حلَّلتُها وأصلحتُها وأرسلتُها إلى الصنَّاع. لم أتلقَّ ردًّا خلال ثلاثة أشهر ونسيت الأمر.

بعد مرور تلك الفترة، تلقيتُ طردًا كبيرًا قادمًا من شركة أمريكية، اشتمل على كل إصدارات تلك اللعبة، ستة إصدارات، وذراع تحكُّمٍ جديدة برَّاقة، وكان الطرد مصحوبًا بخطاب يشكرونني فيه، ويقترحون عليَّ أن يرسلوا إليَّ جديد ألعابهم، ويدعونني إلى تجربتها وإطلاعهم على رأيي فيها.

بدا لي أمرًا لا يُصدَّق! سأحصل على أحدث الألعاب مجانًا!

ما لم يثِر دهشتي هو إرسالهم إليَّ، عقب ذلك بستة أشهر بعدما أرسلت خمسة تقارير فقط، جهاز (ماكبوك) ومشغل ألعاب فيديو كهدية، بالإضافة إلى خطاب آخر يدعونني فيه إلى تجربة ألعابهم بصورة منتظمة. تحدثوا بغموضٍ عن مكافأتي وفقًا لنتائجي، كما دعوني إلى توقيع عقدٍ بالسرية. ينبغي لي ألا أُفصح عن "أي شيء" مما أفعله إلى "أي شخص".

لم يسألوني قطُّ إن كنتُ قاصرًا.

كما كان متوقعًا، تسببت كل تلك الحركة للطرود والهدايا والزيارات البريدية، بالإضافة إلى عزلتي في غرفتي، في إيقاظ شكوك أمي. قضيت ساعات في إقناعها بأنه لا ضرر في كل ذلك، بل إنه خير! اتسم كل شيء بالهدوء طيلة أشهر، إلى أن بدأت (تلك) في الاتصال.

لا أستطيع التجول متباهيًا بكوني لاعبًا من الفئة A، لأن أحدًا لن يكترث لذلك، لكن الأمر بالنسبة إليَّ (وإلى أمي) مهم جدًّا. أشعر بالراحة وأنا أعرف أنني لا أعتمد عليها، بل وحين أفكر في إمكانية توقفها عن العمل يومًا ما.

في الحياة أشياء تبدو تافهة ولكنها جوهرية. يُقال إنه لو كانت كتلة البروتون أكبر مما هي عليه بمقدار اثنين في الألف، لما تكوَّنت الذرات ولا وُجِدنا هنا. لو لم تخطر لأبي حماقةُ تسجيلي في دورة الآلة الكاتبة...

راسلتُ كاتارينا لأخبرها بأنني سأحظى بوقت فراغ أطول في عطلة (أسبوع الآلام)[1] المقبلة. سألني أبِل وأندرِس إن كنت أريد الذهاب معهما ليومين للتسلق في (ليون)، لكنني لا أرغب في أن أكون بلا رفيقة؛ ماذا يُفترض بي أن أفعل في خيمة مع زوجين من العشاق؟ أو هل سأنام وحيدًا بينما تصدر همهمات مريبة في الخيمتين المجاورتين؟

هناك أسباب أخرى يُمكن تخيلها.

أنا في فترة امتحانات الآن وأعود إلى البيت مبكرًا، في الثلاجة عُلب طعام ووجبات تكفي فردًا واحدًا تجلبها أمي من المدرسة التي

(1) أسبوع الآلام في إسبانيا: احتفال سنوي لذكرى آلام يسوع، يحتفل به عددٌ من الأخويات الصوفية والأخويات الدينية الكاثوليكية؛ إذ تخرج المواكب في شوارع المدن والبلدات الإسبانية. (المترجمان)

تعمل بها. ليس الأمر سيئًا إلى الحد الذي يمكن افتراضه، فهي اختارته لسببٍ ما. أنا سيئ جدًّا في الطبخ، رغم أنني أتولَّى إعداد الطعام منذ وقتٍ طويلٍ، بغض النظر عن كوني أمير الـ(تورتيًا)، فإن مؤهلاتي في الطبخ لا تتعدى ذلك.

لا أعرف شيئًا عن تشاندرا منذ عدة أيام. لديَّ شعور قوي بأنني لن أصادفه مجددًا.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

أخذ الجندي إلياس ب. داوسون مقطع الڤيديو الذي أثار اهتمامه، بالكاد ثانية ونصف. صنع منه حلقة مفرغة وعاينه عشرين مرة على الأقل قبل أن يتوصل إلى استنتاجٍ نهائي. اختار إحدى اللقطات وأرسلها للطباعة.

كانت الصورة ضبابية، لكنها لا تدع مجالًا للشك: ثلاثة رجال ووميض إطلاق النار من أحد الأسلحة. الأمر لا يتعلق بحادثٍ.

طرق باب الرقيبة أُواتيس.

قال من موقعه عند عتبة الباب:

- سيدتي الرقيبة، بخصوص فقدان الإشارة الذي حدث بالأمس...

انتظر الجندي داوسون أن تلتفت إليه الرقيبة قبل أن يتابع. كان وافدًا جديدًا إلى الـ(DAW)، وظل متسمِّرًا عند المدخل، ملتزمًا بأوامر لم يتسع الوقت لنسيانها بعد.

سألت، وهي تدير الكرسي نحو الباب:

- أجل؟
- حادث الطائرة (بوينتر)... فقدان الإشارة...
- أجل أيها الجندي، ليس لديَّ الصباح بأكمله، ولكن استرخ بالله عليك، ليس هذا معسكر تدريب للمستجدين.

قال داوسون بينما يناولها الصورة، وهو لا يزال متيبسًا:

- كنت أريد أن أقول لحضرتك، سيدتي الرقيبة، إن الأمر لم ينتج عن أي حادث؛ تُظهر الصور الأخيرة التي التقطتها الطائرة مجهولين يطلقون النار.

دقَّقت الرقيبة أُواتيس في الصورة بعناية، وعلَّقت من دون أن تنظر إلى الجندي:

- هناك سلاح، نعم، وثلاثة ملتحون مسلَّحون.

ثم تابعت:

- تحدث مع موسكيتو، ولتبق العمليات قائمة.

- معذرةً سيدتي الرقيبة... موسكيتو؟

توجَّهت الرقيبة إلى الجندي:

- اللعنة! أقصد العرِّيف نورث، تعلَّم هذه الأشياء في أسرع وقتٍ، وتذكر أنهم يدعونني بولدوج[1]، لكن لا تفكر في مناداتي به.

- أجل، سيدتي الرقيبة.

قالها الجندي بينما يؤدي تحية عسكرية لم يكملها إلى النهاية.

بحثَ إلياس ب. داوسون عن العرِّيف نورث، وقف أمامه وناوله الصورة ولخَّص له المحادثة التي دارت بينه وبين الرقيبة أُواتيس. سأله موسكيتو:

- هل معك الڤيديو؟

- أجل، سيدي العرِّيف.

قال نورث بعدما قرأ اسمه المعلَّق على قميصه:

- لو استمررت هكذا أيها الجندي إلياس فسوف تأكل خراءً أكثر مما تستطيع أن تتغوط. نادني موسكيتو، وأرني ذلك الڤيديو اللعين.

تابع العرِّيف الدقيقة الأخيرة من التسجيل بانتباه، وتوقف عند الدائرة التي بيَّنها له الجندي. كان واضحًا أن الأمر يتعلق بعملٍ حربي: شخصان يطلقان النار على طائرة استطلاع.

فكَّر موسكيتو: لم يكن الأمر مستبعدًا في العمليات.

***

(1) Bulldog: اسم إحدى سلالات الكلاب التي تتميز بالقوة البدنية. (المترجمان)

11

عـدتُ إلى المكتبـة، سـحبت كتابـين لشـخصٍ يُدعـى جـو سـاكو[1]. إن رغبتـي في أن أصبـح رسـامًا نـوع مـن الحماقـة؛ يمكننـي إسـاءة تقليـد مـا أراه، لكـن ليـس لـديَّ خيـال. لا تسـتطيع دُمـاي أبـدًا أن تجتمـع في حكايـة واحـدة، كل شـخصياتي وحيـدة جـدًّا مثـلي.

عـلى المـرء أن يعـرف مـا يجيـد فعلـه بصـورة متوسـطة. أحيانًـا وأنـا راقـد عـلى سريـري أذهب في جـولات إلى المسـتقبل: فيـمَ سـأتخصص عندما أكـبر؟ وأشـياء مـن هـذا القبيـل. أنـا متأكـد مـن أن موضـوع الألعـاب هـذا لـن يسـتمر إلى الأبـد، وأنـه ليـس مهنـة أيضًـا. لـو سـألني أحـدٌ خـلال عـشر سـنوات عـن مهنتـي فلـن أسـتطيع الإجابـة بأكـثر مـن هـذا: قاتـل.

---

(1) Joe Sacco: فنـان قصـص مصوَّرة وصحـافي مالطـي أمريـكي حـاز جائـزة الكتـاب الأمريـكي عـام 1996 عـن كتابـه الشـهير (فلسـطين). (المترجـمان)

عمل أبي كهربائيًّا، ويقولون إنه كان من النوع الماهر، حتى بدأ في الشرب وكل تلك الأشياء.

حظي بالكثير من العمل قبل ذلك، رغم أنه في بعض الأحيان قضى أيامًا بأكملها في البيت. أعتقد أن ذلك كان أحد الأمور السيئة، وجوده هو وأمي معًا وقتًا طويلًا. منذ زمنٍ وهم يضربون لنا في المدرسة مثال الماء والزيت إشارةً إلى الخليط غير المتجانس. كانت تسترعي انتباهي تلك القطرات الكروية الصغيرة التي تطفو على سطح الماء لكنهما يستمران في الانفصال شيئًا فشيئًا، الماء في الأسفل والزيت في الأعلى.

أمي هي الماء، بل في بعض الأحيان تكون ثلجًا، بما فيها من صفاتٍ حسنة وأخرى سيئة: عديمة الطعم لكنها شفافة، دائمًا متوقَّعة.

كان أبي هو الزيت، عندما تسخِّنه يتناثر على كل شيء حارقًا إيَّاه. بجانب صفاته السيئة، يتمتع بصفاتٍ حسنة أيضًا؛ إذ استطاع إعطاء الحياة نكهةً خاصة لذيذة، حتى وإن بقيَت لك البُقع فيما بعد.

لا أعرف هل يمكن لأبي اجتياز اختبار (تيورنج)، في بعض الأحيان يبدو إنسانًا، لكن في أحيان أخرى...

لم أرَ جديَّ لأبي، ورغم أن الأمر يبدو كذبة، فإنني لا أعرف إن كانا لا يزالان على قيد الحياة. تحدَّث أبي عنهما منذ زمن. صار جدي، وفقًا لقول أبي، شخصًا مهمًّا في أثناء الحرب، وكانت جدتي سيدة مجتمع تتحدث خمس لغات. لطالما حكى ذلك وهو يقول إنني يجب أن أصبح عازف بيانو عندما أكبر؛ لذا أظن أنها إحدى أكاذيبه، لأنه لم يُرنا ولو صورة حزينة لهما من قبل، وذات يوم توقف عن مجرد ذكرهما.

بعد رحيل أبي، سألتُ أمي عن جدي وجدتي لأبي، لكني لم أسمع سوى إجاباتٍ مراوغة. لست متأكدًا كذلك من أنها تعرفهما، لكن في أحد الأيام أفلت منها شيء تركني متحيرًا: لديك ابنة عمٍّ اسمها إليسا.

لم يحدِّثني أبي قطُّ عن أخيه ولا عن ابنة أخيه إليسا. تساءلتُ ليالِيَ عديدة كيف هي إليسا، وماذا سأفعل لو قابلتها يومًا. فيما بعد توقفت عن التفكير في ابنة عمي الخيالية.

لطالما كان جانب أمي أكثر وضوحًا؛ إذ يعيش أبواها بالقرب من هنا، واعتدنا في بعض أيام الأحد أن نذهب نحن الأربعة لتناول الطعام في منزلهما. إذا كان الجو حارًّا تطهو جدتي (بائيًا)[1]، وإلا فإنها تُعد طبيخًا. في أيام الأحد ليس عليك سوى فتح النافذة لتعرف ماذا ستأكل.

ذات يومٍ، سقط جدي فِرمين مغشيًّا عليه. لطالما تفاخر بأنه لم يُصب بمرضٍ قطُّ، وأنه لم ينكسر له شيء قطُّ، ومات من دون حتى أن يقول آه. كنت في الخامسة من عمري، وعانيت الكوابيس ليالِيَ عديدة مع ذلك الجد الذي تلاشى فجأةً مثل الطيف. كنت أحلم بأنه نائمٌ إلى جواري ويتصبَّب عرقًا، ومَن كان يستيقظ في الصباح مبتلًّا هو أنا.

أحبَّ جدي وجدتي لأمي بعضهما بعضًا للغاية، ولم يستطع أحدهما أن يعيش من دون الآخر. كانا قابلَين للامتزاج، مثل الزبادي والسكر أو الماء والكحول. إذا همَّت جدتي كونتشا بالنهوض في أثناء الأكل لإحضار شيء قد نسيته، سبَقها جدي فِرمين وذهب لإحضار ذلك الشيء، من دون أن يتبادلا كلمة واحدة. أعتقد أنهما كانا من أولئك الأزواج الذين ربطوا عقولهم بأسلاكٍ خفية بمرور السنين.

في العام الذي مات فيه جدي، بدأت جدتي كونتشا تفعل أشياء غريبة، مثل الذهاب للتسوق بقميص النوم وما إلى ذلك. قرر أبواي (حسنًا، أعتقد أنه قرار أمي بدرجة أكبر) أن تأتي للعيش معنا. تعقَّد الأمر لأن أطوارها الغريبة أصبحت أكثر جديَّة: كانت تفتح الغاز بمجرد أن تغفل عنها أمي، تنزع الملابس المنشورة على حبال الغسيل

(1) Paella: طبق أرز إسباني تقليدي تعود نشأته إلى مدينة بالنثيا، يُحضرُّ مع الخضراوات أو الأسماك أو اللحوم. (المترجمان)

كي تسقط في الفناء، تتبوَّل على الأريكة... بالكاد أتذكر، لكن لا بدَّ أنه كان قاسيًا على أمي أن ترى كيف تتحوَّل أمها شيئًا فشيئًا إلى كائن بلا ذاكرة، ولا يمكن السيطرة عليه. أحتفظ بإحساسٍ يخصُّها، من أواخر أيامها، لا يزال ينتصب له شعري: ذات يومٍ مسَّدتُ ظهر يدها، لثانية بالكاد، فبدا لي ملمسه كالورق، ولكَوني عُرضة للكوابيس، حلمتُ في بعض الليالي بأن جدتي تفقد جلدها على هيئة شرائط، مثلما يحدث في أفلام المومياوات.

كانت السنة الأخيرة التي عاشتها جدتي كونتشا معنا صعبةً للغاية، كنت في الصف الأول الابتدائي، الفترة التي ذهبت فيها إلى أكاديمية الآلة الكاتبة، وبخلاف ذلك أعتقد أنني أحببت الذهاب لكونها تخلِّصني من شجارات أبي وأمي. تحلَّت أختي بصبرٍ شديدٍ مع جدتي، تفاهما جيدًا، وفي أكثر من مرة انتشلتها من إحدى المشكلات التي أشعلت الشرر بين أبي وأمي.

بدأ أبي يفتعل الشجار قائلًا إن هذا لا يمكن أن يستمر، وإن ما يجب فعله مع جدتي هو وضعها في دار مسنين، أو نقلها إلى قرية (باداخوث) حيث يعيش أحد أخوالي، أما هي فقاومت، وقالت إنه لا مجال للكلام أصلًا، لكن انتصر أبي في النهاية كما اعتاد دائمًا، بالجدال والتملُّق، مؤكدًا أن الحياة في القرية أكثر هدوءًا، وأن الهواء صحيٌّ أكثر... أُعدَّ السفر لأحد أيام السبت. قضينا ذلك الأسبوع بين ذهاب وإياب في تجهيز الأكياس والحقائب، أمام صمت جدتي وعينيها المدهوشتين. في الصباح الباكر لذلك السبت، عندما أنزل أبي كل شيء إلى الشاحنة الصغيرة، ماتت جدتي كونتشا. قالت أختي إنها كانت جالسة بجوارها على الأريكة ولاحظت فجأةً أنها توقفت عن التنفس. لديَّ نظرية عن أنها انتحرت كاتمةً أنفاسها. تقول أمي إنها ماتت من الحزن، ولم تغفر ذلك لأبي.

أحيانًا أتذكر كل هذا ولا أستغرب أن تصير أمي إلى ما هي عليه. لم تستطع أن تتخيل ما كان على وشك الحدوث، هجران أبي وموت أختي، إلا أنها منذ تلك اللحظة تحوَّلت إلى شخصٍ شكَّاك وخوَّاف. عندما أتفق مع أحد زملائي على اللقاء أو حين يتصل بي، لا بد أن تعرف من يكون أو متى سأعود، وأنا أحمل تعليماتها كالمسامير في رأسي لِحل أي مشكلة يمكن أن تتخيلها: لو فاتتني الحافلة، لو سُرقت محفظتي، لو تعرضتُ لمحاولة اختطاف، لو أعطاني أحدهم علبةً مشبوهة، لو سقطتُ عن الدراجة، لو هبَّت عاصفة، لو نسيتُ مفاتيح المنزل...

حدثتكم قبلًا عن اختبار (تيورنج) هذا، وثمة معضلة شائقة أخرى تخيَّلها شخص يُدعى إدنجتون: لو كان هناك مليون قرد يضغطون عشوائيًا أزرار آلة كاتبة، فكم مليون سنة يحتاج إليها أحد القرود كي يكتب (الكيخوتي) مثلًا؟

يومًا ما، وأنا متأكد من ذلك، ستتمكَّن شخصية حاسوبية من صنع ذكريات، لكن متى ستكون إحداها قادرةً على تأليف قصة كقصتي؟

***

مضت ساعتان على انتهاء اجتماع (مجلس الشيوخ)، وخمد الحديث عن الأمور المبتذلة كحال الفحم في المجمرة التي يعدُّون عليها الشاي. ألقى حزرات باناراس نظرة إلى ساعته للمرة الألف، وتذكر دكانه الذي تعتني به في تلك اللحظات زوجته شبه العمياء. بصفته المُضيف لم يكن في استطاعته ترك ضيوفه الخمسة هناك، مع أنه منذ لحظة، وعن طيب خاطر، كان سينهض من أجل الاعتناء بمشاغله. تذكر المكالمة الهاتفية التي جاءته عشية البارحة. شخص ما يزعم أنه (سُلطة عليا) من الإقليم سوف يأتي لزيارتهم في الثالثة مساءً، ويريد أن تكون (الجرجة) المحلية مجتمعة. كانت الساعة السادسة تقريبًا، ولم يظهر أحد هناك.

قال حزرات في نفسه: "لعنة الله على بيروقراطيِّي الحكومة".

أشعلوا للتوِّ بعض السجائر، ثم أخيرًا ظهر على عتبة باب المنزل طفلٌ يصيح: "إنهم هنا"!

بينما ينهض الآخرون متكاسلين، ويطفئون لفافاتهم أو يعدِّلون هندامهم، أخذ حزرات حفنتَين من الفحم وأضافهما إلى المجمرة، مذكِّيًا الجمر بقطعة من الورق المقوَّى، ثم ملأ الإبريق بالماء ووضعه على الفحم. ارتفع هدير الشاحنة، الذي كان بعيدًا في البداية، رويدًا رويدًا حتى اقتحم المنزل.

نهض الشيخ متكئًا على عكازه وخرج برفقة جميع الحاضرين لاستقبال الزوَّار. نزل من الكابينة ثلاثة أشخاص، بينما بقي شابان بالبندقيتين الآليتين على مرمى البصر، واقفَين في الصندوق.

اقتربت مجموعتا الرجال من بعضهما، وكشف البروتوكول عمَّن يُمثِّل (السُّلطة العليا) ومن يكون رئيس (الجرجة). تبادلا التحية بشكلٍ طقوسيٍّ وبعضَ العبارات التي لم يتمكَّن الآخرون من سماعها، ثم دعا حزرات الوافدين الجدد إلى الدخول إلى المنزل.

كان الاجتماع موجزًا، وبطريقة رسمية رفض ممثِّل الحكومة الشايَ المقدَّم إليه، متعللًا بأن الوقت قد تأخر.

طرح مُمثِّل (السلطة العليا) سؤالًا ما، وأصدر بعض الأوامر. أدرك حزرات أنهم لا يتركون له خيارَ إبداء رأيه، ولن يجيبوا عن أسئلته، لذلك أجاب عن السؤال وأومأ برأسه مطيعًا.

خرجوا بعد فترة وجيزة. ركب بعضهم في الشاحنة، التي لم تكن قد أطفأت محركها طوال ذلك الوقت، وانحشر الشيوخ الستة في (مرسيدس) مهترئة مركونة بجوار الباب.

تقدمت السيارة وشقَّت طريقها نحو مكبِّ النفايات، خلفها أثارت الشاحنة سحابة من الغبار راقبها سكان القرية بفضولٍ.

ركضت مجموعة من الأطفال خلف المركبتين وهم يصيحون في مرحٍ لهذا الإغراء غير المعهود.

عندما وصلت السيارة والشاحنة إلى وجهتَيهما، استمر الصبية في الركض، ورسموا قوسًا للصعود إلى أحد التلال، متأكدين من أن ما يلي ذلك سيملأ بعض الأمسيات بالمحادثات والألعاب.

من تحت المظلة حيث كان نائمًا ينتظر السيارتين، خرج الحارس الذي وضعه حزرات بجانب حطام الطائرة في نفس اليوم الذي أُسقطت فيه.

ترجَّل الركاب الخمسة من الشاحنة. علَّق الشابان -اللذان كانا في الصندوق- سلاحيهما على كتفيهما، وكوَّنا دائرة مع البقية، حول كومة مغطاة بمُشمَّع مُعفَّر بالغبار.

بأمرٍ من حزرات رفع الحارس والشابان المشمع بحرصٍ، محاولين إبقاء أرجلهم بعيدة عن الحطام. راقب الجميع ما بدا كأنه لعبة ضخمة، طولها ثلاث أذرع وعرضها ذراعان. كان أحد الجناحين قد

تحطم عند ملامسته الأرض والجزء الخلفي من جسم الطائرة مثنيًا، لكن لم يبد ذلك الأخير مصابًا بأضرارٍ جسيمة، إذا استثنينا ثقبًا بالقرب من مقدمة الطائرة، وثمة بقعة داكنة وجافة على الأرض، ربما تكون خليطًا من البنزين والزيت.

أخرج سائق الشاحنة من مخلاته كاميرا صغيرة، والتقط صورًا من بُعد ومن قرب، مؤكدًا مع كل لقطة أن النتائج مُرضية.

بُسِط المشمع على الأرض، وأمسك الشابان المسلحان الطائرة بحرصٍ ووضعاها فوقه، متبعَين تعليمات الموفَد الحكومي. بعد ذلك، أمسك أربعة رجال بالمشمع من أطرافه، ورفعوا الحمولة الثمينة إلى الشاحنة.

شاهد الأطفال كيف توجَّه حزرات والحاشية التي تتبعه إلى النقطة حيث أطلقوا النار على الطائرة منذ أيامٍ، ورأوا مراتٍ عديدة كيف يصف بعكازه مسار الطائرة عندما أُسقطت.

قبل الشروع في العودة، أخرج (السلطة العليا) من جيبه رزمة من الأوراق النقدية مربوطةً برباطٍ مطاطي، وناول حزرات بانا‌راس إياها.

حين لاحظ إيماءة عدم الفهم لحزرات، وضَّح ممثل الحكومة:

- ثلاثة آلاف دولار، إنها مكافأة اصطياد إحدى هذه الطائرات، ألم تكن تعرف؟

قال حزرات بينما يأخذ النقود:

- لا، لم أكن أعرف.

ثم قال له بانحناءة:

- شكرًا[1].

(1) كُتبت في النص الأصلي "Shukhran" إشارةً إلى أن حزرات قالها باللغة العربية. (المترجمان)

في أثناء ابتعاد الشاحنة وأعضاء المجلس يهنئون أنفسهم على الجائزة غير المتوقَّعة، نزل الأطفال من الربوة وركضوا خلف أعقاب التراب، في مطاردة مستحيلة.

فضَّل حزرات العودة إلى القرية سيرًا على قدميه، على الرغم من معرفته أن زوجته في انتظاره. كانت لديه أشياء كثيرة ليفكر فيها.

***

12

فاجأتني أمي بها يوم الجمعة بينما نتناول العشاء: قد نذهب إلى القرية يوم الثلاثاء، ونقضي عيد الفصح هناك، منذ وقتٍ طويلٍ لم نرَ...

شعرتُ برعشة، كأنني تكهربت بين أظافر قدميَّ. أجبتها بـ"لاااا!" في المنتصف بين الغضب والشكوى، وتحجَّجتُ بأن لديَّ الكثير لأذاكره خلال العطلة، وأنني لا أستطيع الذهاب.

ردَّت عليَّ:

- يمكنك المذاكرة في القرية.
- لا يمكنني ذلك هناك يا ماما، أنتِ تعرفين ذلك.

وحاولت أن أُلملم حُججًا أخرى:

- أحتاج إلى الكمبيوتر، أن أمرَّ على المكتبة، أن أُعدَّ بعض الملاحظات مع بعض الزملاء، لم يبق شيء على نهاية الفصل الدراسي...

من الصعب معارضة أمي. في العادة لا ترد، لكن عندما تخالفها تقطب وجهها في عبوسٍ، وتغيب في بئرٍ من الصمت. بعد قول لا، يمكنها البقاء ساعاتٍ من دون أن تنطق بكلمة، فتدفعك إلى الشعور بالذنب. لطالما فعلت نفس الشيء مع أبي، بيد أنها مع أبي كان لديها أسبابها.

لذلك أدهشني ما قالته بعدئذٍ:

- إذن، سأذهب وحدي.

شعرتُ في كلماتها بصلابةٍ أكثر منها غضبًا. لم أستطيع التصديق! شعرتُ بالحيرة، خاصةً عندما شرحت لي بهدوءٍ:

- يجب أن أذهب مع خالك لتوقيع بعض الأوراق المتعلقة بمنزل وأراضي جدك وجدتك. إذا كنتَ لا تريد المجيء معي فسوف أذهب يوم الخميس وأعود السبت.

قلت لها، وأنا ما زلت غير مصدق (مُفكرًا في بقائي وحيدًا لمدة يومين):

- هذا جيد، بصراحة لديَّ الكثير لأفعله يا ماما.

بدأتْ تخبرني بالتفاصيل ونحن نرفع المائدة: "يريد خالك راموس تجهيز منزل الجدَّين ليعيش فيه؛ بعد كل هذه السنوات، جاءت لحظة تسوية مسألة الميراث العائلي، ما يعني حل مشكلة التقسيم بين الأخوال-الأجداد والأبناء وأبناء الإخوة وغيرهم من الأقارب". حدَّثتني بحماسٍ عن منازل وبساتين وأراضٍ وتربيعات، أماكن أعرفها

لأنني زرتها في صغري، وكانت المرة الأخيرة منذ سنتين في عطلة صيفية شديدة الملل. شعرتْ بالسرور لأن ذلك يعني أيضًا أننا سنحصل على مبلغٍ من المال، رغم أننا لم نعرف متى ولا على كم سنحصل.

كانت تلك الليلة مرحة كمَرَّات قليلة غيرها. ذهبتُ إلى الفراش سعيدًا.

حين جاء السبت استعملتُ كل وسائلي لإقناعها بإمكانية ذهابها يوم الثلاثاء وقضاء بعض أيام العطلة، ولدهشتي، وافقت في النهاية. قضت يوم الأحد في طهو وتجهيز الطعام في علبٍ بلاستيكية موزَّعة بين الثلاجة والفريزر. تحلَّيتُ بصبر القديسين في مساعدتها على وضع ملصقات بالمحتوى والتاريخ على كل علبة: عشاء الثلاثاء، غداء الأربعاء، عشاء الأربعاء... في تحمُّل تعليماتها مرة أخرى للتغلُّب على أي عائق، من ضياع المفاتيح إلى تسرُّب المياه... وفي مراجعتنا معًا لأرقام هواتف الطبيب وشركة التأمين والشرطة وخالي... في ذلك المساء حجزتُ تذكرتين من على الإنترنت؛ تذكرة قطار من أتوتشا إلى ميريدا وتذكرة حافلة من ميريدا حتى القرية، بالطبع دفعتُ ثمنهما بنفسي.

بدا لي كل شيء خفيفًا وأنا أفكر في الأيام الخمسة التي سأقضيها وحدي في المنزل.

أظن أنه عندما تنضج الأشياء تسقط بفعل وزنها، كما يُقال عادةً. كانت تلك هي أول مرة تتركني أمي وحيدًا، وهو الأمر الذي كنت أشعر أن الكثير من زملاء دراستي قد جرَّبوه. ربما في نهاية المطاف اعتبرتني أمي كبيرًا بما يكفي لأعتمد على نفسي. لقد حان الوقت! سوف أبقى وحدي وفي إمكاني المكوث عاريًا في المنزل إن أردت (رغم أن الجو كان باردًا في تلك الأيام)؛ وحدي لأشاهد ما أريد على التلفاز؛ وحدي وغير مطالَب بتقديم تفسيراتٍ لأحدٍ؛ وحدي كي أتحدث في الهاتف متى أردت أو أمكث في غرفتي لألعب والباب مفتوح؛ لأنام وقتما أرغب في ذلك ولأستيقظ على راحتي... وحدي!

لكني أعترف بأنني أحسستُ بشيء من الخوف عندما تركتُ أمي في القطار. ماذا لو جرى لها شيء؟ ماذا لو أُصبتُ بالتهاب الزائدة الدودية ولم يخبروها في الوقت المناسب؟ أو ماذا لو اعتدى عليَّ أحدٌ في الشارع فعلًا؟ الحقيقة أنه في تلك اللحظة شعرتُ ببعض الضغينة نحوها: لقد تركتني هكذا غير عابئة بما سيحدث لي، هي التي كانت تقول إنها تحبني وتحتاج إليَّ بشدة... حسَبتُها فوجدتُ أن الوصول إلى ميريدا سوف يستغرقها أكثر من ست ساعات؛ هذا بالإضافة إلى الرحلة بالحافلة، إجمالًا ثماني ساعات من السفر. قلت في نفسي: "المسكينة، إنها بمفردها". شعرتُ بالذنب.

هراء. نسيتُ كل شيء بمجرد أن ابتعد قطارها.

في الشارع أحسستُ أنني ملك المدينة. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل؛ اليوم لي والمال في جيبي! أفطرتُ قهوةً مع أصابع الـ(تشورُّوس)[1] أمام المحطة، أحب الـ(تشورُّوس) جدًّا، لكنني بالكاد أتناولها. في أيام السبت والأحد، حيث يمكنني الخروج لتناولها، ألتهم الخبز المحمص والعصير الذي تعدُّه لي أمي، كي لا أكسر بخاطرها.

كانت تمطر رذاذًا عندما خرجت إلى الشارع. لا بد أن الطريق إلى المنزل، مرورًا بميندیث ألبارو وجادَّة إنتريبيبَّاس، أقل من خمسة كيلومترات وقد قررتُ أن أقطعها مشيًا رغم المطر، يا لَلمتعة! لم أكف عن التفكير في أول ما سأفعله عندما أصل إلى المنزل.

افتقدتُ وقتها وجود هاتف محمول معي، حينها كنت سأتصل بأندرِس وأبِل وتشورِّي وبيريًّا... وقبلهم جميعًا إيلينا، لكن إيلينا كانت بعيدة.

قلت لنفسي: "أُف، أنا وحيدٌ بحقٍّ".

---

(1) Churros: وجبة خفيفة تقليدية في إسبانيا والبرتغال، عبارة عن شرائط عجين مقلية يضاف إليها عادةً السكر والقرفة. (المترجمان)

فجأةً، لا أعرف لماذا، شعرتُ برغبة فظيعة في شراء شيء ما. يُقال أحيانًا إن الرغبة القهرية في التسوق لها علاقة بالشعور بالإحباط، وأعتقد أنني للمرة الأولى في حياتي شعرتُ برغبة ملحَّة في شراء شيء ما. جهزت قائمةً في ذهني: هاتف محمول، بنطلون، معطف برقبة، حذاء رياضي... المسافة من محطة أتوتشا إلى محطة جنوب مدريد عبارة عن طريق من الطوب والمباني الصناعية وأراضي البناء، فأسفتُ لعدم رجوعي عبر شارعَي (مدينة برشلونة) و(لا ألبوفيرا) حيث توجد محلات، على الأقل للتفرج على واجهاتها. لم أشعر بالإحباط، بل كنتُ راضيًا، شبه سعيد، لهذا اعتقدت أن عملية التسوق تلك تتعلق بترك إثباتٍ لحدثٍ يستحق التذكُّر: الـ(ريبوك)[1]-من-وقت-أن-غادرت-ماما، وأشياء كهذه.

قلتُ لنفسي "سأشتري شيئًا"، لكنني لم أكن في عجلة من أمري، يجب أن أفكر فيه جيدًا.

اشتدَّ المطر. أحيانًا، في أثناء عودتي أنا وأصدقائي في القطار 102، وعبر نفس تلك الطريق، كنَّا نرى العاهرات في أنحاء محطة (سور)، كلهن تقريبًا شابات، بعضهن آتيات من أماكن غريبة عن هنا، تُروى عنهن حكايات كثيرة، لا أعرف إن كانت صحيحة. في تلك الساعة لم أرَ أي واحدة، لكن انتابتني نزوة التفكير في إمكانية المرور من هناك ليلًا والعودة إلى المنزل برفقة واحدة من تلك الفتيات. لم يكن الأمر رغبةً بقدر كونه نزوتي لأن أكون وحيدًا، ألا يوجد شخصٌ يتحكَّم بي. لا يتعلق الأمر بشراء بنطلون لي، مثلًا.

وصلتُ إلى البيت مبتلًّا، افتقدتُ مَن يقول لي: "ولكن يا بني كيف تأتي هكذا؟". كان الصمت مخيِّمًا، لكنه ليس صمت تلك اللحظة فحسب، لأن ذلك الهدوء كان مثل حيوان يمدُّ مجساته نحو الأيام

---

(1) Reebok: ماركة أحذية رياضية شهيرة. (المترجمان)

المقبلة: غدًا وبعد غدٍ وما بعده وما بعده... سرتُ نحو حجرتي مخلِّفًا سرسوبًا من القطرات على الأرض. فتحتُ غرفة أمي، رأيت السرير مرتَّبًا والستارة نصف منسدلة والنوافذ مغلقة. ذهبتُ إلى غرفة أختي، بسريرها وعرائسها التي لا تزال على الرف. كانت لتعود في تلك اللحظة وتحتجُّ على وجود علبة المروحة بجانب نافذتها، والسُّلم على الجدار، وأكياس تحت السرير... لكن جميع الأشياء الأخرى ظلَّت في أماكنها: كتب الصف الثاني الثانوي، أقراطها، مفكرتها، ملابسها الداخلية المطوية في الدُّرج... بالنسبة إلى أمي، فإن غرفة أختي مكان مقدَّس. من يدري كم بكت داخلها وقتما لم يكن يراها أحد.

ما حدث لأختي كان فاجعةً لأبي كذلك؛ زاد عمره عشر سنوات في الأيام العشرة التي مكثْتُها في المستشفى. حين دخلتُ لم يبد الأمر خطيرًا، بعض الحرارة المرتفعة، بعد ذلك قالوا كلمة لعينة: التهاب الدماغ. لو أن ثمة وظيفة لن أمتهنها أبدًا فهي الطب. لا بد أن التأكد من عدم القدرة على فعل شيء أمر لعين. يمكننا الذهاب إلى القمر واكتشاف الأنظمة الشمسية في أماكن يستحيل علينا بلوغها، لكن لا يمكننا محاربة فيروس خرائي.

في تلك الأيام وما تبعها تخيلتُ أن الأمور ستنصلح بين أبي وأمي، لكن من الجيد أن هذا لم يحدث.

راحت البيوت تمتلئ بذكريات بدت مختبئة وقتًا طويلًا، لكن حالما تتمكَّن من الأمر تخرج حائمة كالحشرات، ولا شيء أفضل من الصمت والوحدة يدفعها إلى الخروج من أوكارها. بعضها لطيف مثل الفراشات، وللعلم إن لديَّ فراشات كثيرة منذ طفولتي، لا علاقة لها بالقصص التي سمعتها أحيانًا من بعض زملاء دراستي الذين مثَّلت لهم الحياة فاجعةً منذ ألقموهم أول ثدي. لكن زحفت على الأرض

والجدران ذكرياتٌ أخرى سامَّة، تلدغك في غمضة عين، ويدوم أثر اللدغة ساعاتٍ.

لم أكن مستعدًّا للإصابة بأي تعكيرٍ في المزاج، لذلك أبعدتُ ذكريات أختي قدر المستطاع، ذهبت تاركًا ملابسي على الكراسي وعلى الأريكة، غير مكترثٍ لبقع الماء التي ستختفي بحلول عودة أمي، وشغَّلتُ الكمبيوتر ريثما أرتدي ثيابي. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف تقريبًا ولديَّ اليوم بأكمله. أتاح لي (سبوتيفاي) كل الموسيقى الموجودة في العالم تقريبًا، دون قيودٍ ولا إعلانات، وبالمجان؛ اخترت توم وايتس ووضعته على درجة الصوت التي رغبت فيها.

وجدتُ ثلاث رسائل في صندوق الوارد، واحدةً من فتاة ثقيلة الظل من المدرسة توقِّع باسم (القلب الطيب) قد أدرجتني في قائمة من عناوين البريد الإلكتروني التي ترسل إليها صورًا ومقتطفات من الشعر المتحذلق. واحدةً أخرى من أحد زملاء دراستي وبها رابط إباحي. ألقيت نظرة على صندوق (سبام) قبل أن أجلس لقراءة الثالثة؛ كان كل شيء تحت السيطرة لأن لديَّ مرشِّحًا خاصًّا بي ومنذ وقتٍ طويلٍ لا يتسلل إليَّ شيء لست مهتمًّا به؛ حذفتها جميعًا بمجرد أن قرأت العناوين.

كانت الرسالة المتبقية من كاتارينا، وأطول من المعتاد. باختصارٍ، هنَّأتني على تقييمي الأخير، وأخبرتني بأننا نستطيع إجراء جلسات مضاعفة في تلك الأيام، لو أردتُ ذلك، في الرابعة مساءً والحادية عشرة ليلًا، والأهم هو الفقرة الأخيرة:

"يجهِّز فريق التصميمات منتجًا جديدًا عبر الإنترنت باستخدام (الأڤاتار)، لكنني لا أستطيع التوضيح أكثر من ذلك. هل تريد أن تتولَّى تجربة أنظمة محاكاة لأجهزة طائرة وحربية؟ أحدث ما فيها...".

تحمَّست! كنتُ قد ألمحت منذ فترة إلى أنني مللت الألعاب القتالية، وأنني أتممت تقييمها.

تركت لي عنوانًا ومفتاحًا جديدًا عليَّ استخدامه إلى جانب مفتاحي والـ(دونجل) المتصل بحاسوبي.

دخلتُ إلى موقعٍ شبه حصين، لتجربة بعض النماذج الأولية. لم يكونوا يدفعون لي مقابل ذلك، لكنني تعطَّشت إلى الأمر.

***

يمضي العرِّيف نورث بمزاجٍ عكرٍ منذ يومين.

لم يكن يحب أن يفقد "عصافيره"، كما اعتاد أن يسميها. حدثت المرة الأخيرة منذ شهرين، بسبب عطلٍ تقني في مثبِّت الذيل.

كان ذلك يندرج ضمن المخاطر.

لكن تلك الطائرة التي أُسقطت...

مرَّ على كافيتيريا المعسكر في منتصف الصباح. فقط من أمام المشرب، طلب قهوة وقطعة (دونات) بالمربى تناولها سريعًا.

فكَّر في التقرير الذي أنهى كتابته، وفي الصور الثلاث التي سترافقه.

قال لنفسه: "ملتحون ملاعين!".

عند خروجه من المقصف، لاحظ مجموعات الجنود الجالسين على طاولاتهم. على إحدى هذه الطاولات، ثلاثة رجال وامرأة يلعبون النرد. شاهد كيف يرتفع كوب النرد ويرسم قوسًا في الهواء ويسقط ببطء على البلاستيك الأخضر، مُحدِثًا صوتًا مدويًّا، ثم بعد قليل تعلو صيحات اللاعبين.

اقترب وشاهد كيف تُنقل الدبابيس الملونة من أكوام إلى أخرى على الطاولة. كانت المراهنة بالمال ممنوعة في المعسكر، لكن الجميع يعرف كم تساوي الدبابيس الخضراء والحمراء والزرقاء.

ذهب نحو الطاولة من دون أن ينبس بكلمة، أمسك بالكوب وألقى داخله أحد أحجار النرد.

رجَّه في الهواء، وتركه يسقط على الطاولة بضجيجٍ مكتومٍ.

قال عندما استقرَّ النرد:

- أربعة.

بعدها سار في اتجاه مكتبه وهو يشعر بنظرات اللاعبين المندهشة من خلفه.

***

13

لطالما عشتُ في نفس المنزل، لذلك أعرف كل الجيران عن ظهر قلب، وهم ليسوا كثيرين أيضًا: ثلاث شُقَق في الطابق، بالإضافة إلى اثنتين في الطابق الأرضي، أي إحدى عشرة في المجموع.

أعيشُ في الطابق الثاني ولا يوجد مصعد، لذا سئمتُ صعود السلالم ونزولها وملاقاة نفس الأشخاص.

في قرية أمي، التي هي قرية جدي وجدتي كذلك، يقولون إن أرض القرية تعود للمستعمرين، أظن لأن الكثير منهم رحلوا إلى أمريكا، سَأَمًا من رؤية خلقة الجيران المعتادين، وبحثًا عن فرصٍ للفرار من البؤس. لا يعيش في بنايتي تحديدًا أناس جريئون إلى هذه الدرجة. نحن تقريبًا نفس الأشخاص منذ أن وعيت على الدنيا، وبالنسبة إليَّ فلا يوجد ما هو أكثر إحباطًا من تخيل نفسي بعد عشر سنوات وأنا ما زلت أصعد وأهبط تلك السلالم.

يمكنني التحدث لأشهرٍ عن الجيران وعاداتهم الغريبة. لا أعرف أيَّ سببٍ غريبٍ حمل أبي وأمي على العيش في هذه البناية، لكن في صغري لم يكن ثمة أطفال في مثل سني، كان البيت قديمًا والأولاد كبارًا، بحيث إنني اصطدمت بأشخاصٍ أطول مني طيلة أعوام، في حين أن البناية الآن مليئة بالأحفاد الصغار المزعجين. لو كانت هناك عدالة في العالم لصار حتميًّا أن أتفرَّغ لضرب أولئك الأقزام على قفاهم، مثلما اعتاد أن يضربني آباؤهم.

تحتجُّ أمي لأنني ألازم الكمبيوتر دائمًا، لكن إلى أين سأنظر؟ إلى الفناء للتلصُّص على الملابس الداخلية التي تعلقها الجدَّات في مناشر الغسيل؟ إنها تبعث على التقيؤ. أنظر من النافذة لمشاهدة المُسنِّين الجالسين في الشمس، أو مجموعات المساخيط وهم يلعبون الكرة؟ إن أحد الأشياء الأخرى التي تُحبطني هو تأمُّل المتقاعدين في الطقس الجيد بالمنامات وهم يُطلِّون من شرفاتهم ويدخنون بلا هوادة في انتظار الموت. ربما تعبِّر أمي عن شكواها، وما ترغب فيه هو أن أقضي المزيد من الوقت معها، أن نخرج للتنزه وما إلى ذلك. فعلتُ ذلك لسنواتٍ عديدةٍ بالفعل، أن نخرج للتسوق ونتفرج على واجهات المحلات.

لا أعرف إذا ما حظيتم ذات مرة بفرصة أن تكونوا أحرارًا، أتصور أن الإجابة نعم: أن تلتهم الطعام على الأريكة كخنزيرٍ بينما تشاهد فيلمًا واضعًا قدميك على المنضدة، أن تُراكم الأواني في الحوض حتى لا يبقى فيه متسعٌ لوضع ملعقة، أن تركل الملابس الداخلية حتى سلَّة الغسيل أو ألا تُضطر إلى توخي الحذر من إحداث جلبة إذا ما رغبت في مكافأة نفسك تحت الدُّش أو في السرير.

حسنًا، أمرٌ جيد، أليس كذلك؟

لكنني أؤكد لكم أن الأمر لا يُطاق إذا مكثتَ أكثر من أربعٍ وعشرين ساعةً دون أن تتحدث إلى أحدٍ.

تأتي لحظةٌ تتمنى فيها أن يُهاتفك أحدهم للخروج، أن يرنَّ الهاتف اللعين مرةً واحدةً على الأقل وتكون المكالمة من أجلك (اتصلت أمي مرتين يوميًّا لتطمئن عليَّ، لكن هذا لا يُحتسب). في مساء الأربعاء كنتُ يائسًا وعزمت على أن يصبح اليوم التالي مختلفًا.

كان رفاقي لا يزالون يتسلقون الجبال ويفعلون أشياء أخرى أكثر تسلية، وقائمة الأشخاص الذين أملك أرقام هواتفهم أو إيميلاتهم قصيرةٌ حقًّا. أخبرتكم من قَبل أنني لا أملك الكثير من الأصدقاء، وللحظةٍ انتابتني نزوة حتى عن كاتارينا: "انظر إن كانت تفكر في المجيء إلى إسبانيا خلال هذه الأيام...!". لكن كان ذلك غباءً.

مثلَ غريقٍ يائس، بدأتُ في الردِّ على (القلب الطيب). كتبت لها: "أعجبتني تلك الأخيرة"، إشارةً إلى قصيدة لبينيدتي بدت مقبولةً في الحقيقة، ثم تجرأتُ: "هل أنتِ هنا؟ (-;".

بينجو! بعد دقائق، وبينما أُعدُّ شطيرةً لنفسي، رنَّ صوت رسالة واردة: بلينج. نعم، إنها هنا!

بعد تبادُل عدة رسائل قصيرة، اتفقنا على اللقاء يوم الخميس في السادسة؛ شعرتُ بانتصارٍ. على الرغم من أن (القلب الطيب)، واسمها الحقيقي باتريثيا، ليست فتاة أحلامي (لا تشبه إيلينا في شيء!)، فقد بدا أن قوانين الاحتمال تعمل لصالحي ولو لمرة، وعزمتُ على استغلالها.

قد تضحكون من هذا الأمر، لكن حتى وقتٍ قريبٍ ظلَّت أمي تبتاع لي الملابس وتحشرني فيها، لم تسألني مثلًا: "هل يعجبك هذا البنطلون؟"، وإنما كانت كأنها تقول لي: "هذا البنطلون من أجلك،

اشتريتُه لك بالكثير من الجهد والعرق، يبدو لي جميلًا جدًّا لذلك البسه ولا تجادل"، لماذا سأجادل؟

ذهبتُ في صباح الخميس لشراء بعض الملابس، شبشب وبنطلون وجوارب على ذوقي. رتبتُ المنزل في أثناء الأكل، ليس لأنني انتظرت شيئًا محددًا، وإنما لأنه كان مزبلًا في الحقيقة.

وبينما أغسل الصحون وما إلى ذلك شعرتُ بأنني غبي. هل يُعَدُّ لقائي باتريثيا "موعدًا غراميًّا"؟ هل سأُسلِّم عليها بقبلة؟ أينبغي لي شراء واقٍ ذكريٍّ أو شيء كهذا؟ هل ستذهب وحدها...؟ قبل ساعةٍ من لقائي معها كنتُ أكثر من نادم.

يمكنني الثرثرة بلا انقطاعٍ إذا أردت الحديث عن طريقة سير الأمر، ماذا أكلنا، أين تمشينا، المحادثات والصمت، فمما تعلمته في المدرسة من الهراء الذي جعلونا نقرؤه، ثمة أناس يكسبون عيشهم بكتابة صفحات وصفحات عن ذلك. إنهم يمسكون بذراع عجلة الكتابة ويجترُّون خمس صفحات في سرد شيء يمكن قوله في أربع جُمل. ربما لهذا السبب أحب (الكوميكس) والروايات المصوَّرة، لأنها تدخل في صلب الموضوع. إن أردتم أن تعرفوا فسأخبركم أن الأمر سار جيدًا إلى حدٍّ ما. التقينا في ساحة (لوس كوبُّوس)، الملجأ الذي أرتاده عادةً مع زملائي، تنزَّهنا في حديقة معبد (ديبود) وعُدنا سيرًا على الأقدام حتى ميدان (ثيبيلِس). سألتُها إن كانت تريد الذهاب إلى ديسكو أو ما شابه فأخبرتني بأنها لا تُفضِّل ذلك، وهو ما طمأنني لأنني لا أُجيد الرقص، وتعشَّينا شطائر في أحد فروع (بانس). نزلنا قبل مبنى (الجمعية)[1] بقليلٍ ورافقتها إلى منزلها، لأنه رغم برودة الطقس بعض الشيء، لم تكن تمطر. إن باتريثيا أقل تحذلقًا مما تخيلت، ولا تتحدث عن الكتب دائمًا، مثلما يبدو من رسائل بريدها الإلكتروني. باختصارٍ،

(1) المقصود مبنى (جمعية مدريد). (المترجمان)

أعتقد أنني بدوت لها ظريفًا إلى حدٍّ ما، وأنني لم أرتكب أي حماقة، وأن المجال مفتوحٌ للقاء آخر، رغم أن هذا لا يعني أنني أتوق إلى مرة أخرى. عدتُ إلى المنزل قُربَ الواحدة، من دون أن أُضطرَّ إلى تقديم تبريرات.

ضحكتُ من تذكُّر أمر الأوقية الذكرية بينما أصعد السلم، وأعتقد أن الكثير من زملائي يفرطون في اختلاق الأكاذيب. أظن أنك لو ذهبت إلى ديسكو أو حفل للشُّرب وشربت حتى الثمالة يمكن أن يحدث أي شيء، ولكن في أول موعد غرامي طبيعي، فالحقيقة أنني لا أعرف كيف يمكن الانتقال إلى تلك المرحلة، أو ربما أنا خائب الرجاء.

على الرغم من أنني في تلك الأيام قضيت الكثير من الساعات أمام الكمبيوتر، أعدت تشغيله عندما وصلت إلى المنزل.

أسجل في دفترٍ كل الجلسات التي عليهم أن يدفعوا لي مقابلها ولم يسبق لهم أن أخطؤوا. أظن أن كاتارينا نفسها هي من تتولى التسجيل. لديَّ الآن مال في البنك، وفي كل مرة يرسلون إليَّ فيها خطابًا أصاب بالذهول.

ما لا أعرفه هو كم عدد الساعات التي أقضيها شهريًا أمام الكمبيوتر. أظن أنها بالمئات؛ إذ أقضي بعضها في تجهيز المعارك والاختبارات وما إلى ذلك. تروقني هذه الأيام خاصةً لأنني، بغض النظر عن عدم اضطراري إلى الخروج من الغرفة من حين إلى آخر لأرى كيف تسير الأمور، أو هل تحتاج أمي إلى شيء، لا أضع سماعات الأذن.

يقولون إن عالَم ألعاب الڤيديو اليوم يُدِرُّ أموالًا أكثر من عوالم الموسيقى والكتب والسينما مجتمعة. الحقيقة أنني لا أستغرب ذلك، فالناس الذين يدفعون إليَّ يجيدون عملهم بحقٍّ، ولا بد أن لديهم فِرَقًا من المبرمجين الذين يهتمون بأدق التفاصيل. في الوقت الحالي

الـذي أُجـري فيـه الاختبـارات يمكننـي انتقـاء الطائـرة التـي سـأطير بهـا، والاختيـار بـدءًا مـن مسـتوى الوقـود حتـى أحـوال الطقـس. ثمـة أوقـاتٌ ينتابنـي فيهـا شـعورٌ بأننـي أعيـش في كابينـة قيـادة الطائـرة، رغـم أننـي أتحكَّـم في كل شيء بلوحـة مفاتيـح وعصـا تحكُّـم ودواسـة. لا ينقصنـي سـوى أن يأتينـي طـردٌ كبيرٌ بـه مقعـد طيـار، مـع أنـه ليـس ضروريًـا لأن جميـع تلـك الطائـرات مـن نـوع (UAV)، تحلـق آليًـا، رغـم أنـه أحيانًـا، عندمـا ألعـب أو أُكلَّـف بمهمـة مـا، يجـب عـلى "شـخصٍ مـا" أن يتـولَّى القيـادة، وذلـك الشـخص هـو أنـا.

خلال وقتٍ قريبٍ قد لا تكون هناك حاجة إلى ذلك "الشخص".

أحـب الطائـرات الصغيـرة والمتوسـطة أكـثر مـن الكبيـرة، ويبـدأ تـدرُّج الأوزان مـن الكيلوجرامـات القليلـة إلى عـدة أطنـان. الطائـرات الصغيـرة أبطأ لكنهـا أكـثر قـدرة عـلى المناورة، مثـل نمـاذج الطائـرات اللعبـة التـي شـاهدتها تطير في بعـض الحقـول، رغـم عـدم وجـود مجـال للمقارنـة بـين هـذا وذاك؛ الأمـر أشـبه بقيـادة دراجـة والمنافسـة في سـباق (فورمـولا وان). إن طائـرات المـشروع التـي كلَّفـوني بتجربتهـا متوسـطة، تـتراوح كتلتهـا بـين مئـة وخمسـمئة كيلوجـرام، ويُفـترض أن تصبـح أثقـل بقليـلٍ لأنهـا سـتكون مسـلحة، لكنهـا سـهلة القيـادة عـلى كل حـالٍ.

لداعـي الفضـول، كنـت أذهـب أحيانًـا إلى أحـد المتاجـر لرؤيـة ألعـاب الڤيديـو، وفي الحقيقـة لطالمـا تأثَّـرت بوجـود بعـض الألعـاب التـي شـاركت فيهـا. يَسُرني مـا أفعلـه لأن الألعـاب ذات مسـتوى، لكننـي مندهـش مـما يمكـن للنـاس شراؤه أو تحميلـه مـن الإنترنـت. أتذكـر أن إحـدى الألعـاب تقـول عـلى غلافهـا: "اختطـف قُطَّـاع الطُّـرق حبيبـة (الشريـف)؛ تعقَّبهـم متفاديًـا الأفخـاخ والطلقـات؛ وفي نفـس الوقـت يمكنـك جمـع الذخـيرة والطعـام والصحـة". واحـدة أخـرى أكـثر إذهـالًا: "لقـد طـردوا المجنـون مـن المكتـب، وهـو الآن في غايـة الغضـب؛ ابـدأ بحـرق السـكرتيرة وابحـث

عـن بندقيـة المديـر". وواحـدة أخـرى: "اسـتخدم الإسـبراي لمسـح الـدم قبـل أن يبلـغ الجـزء السـفلي مـن الشاشـة؛ في أثنـاء ذلـك، عليـك الاسـتمرار في جمـع الأعـين والقلـوب والأشـلاء". أقسـم لكـم إن هـذا هـو المكتـوب.

أعـترف أننـي في وقـتٍ سـابقٍ لعبـتُ أيضًـا بعـض الأشـياء التـي أخجـل منهـا الآن، لهـذا السـبب لا أخـبر أحـدًا بمـا أفعـل. تحدثـت مـع باتريثيـا عن السـينما و(الكوميكـس)، رغـم أنهـا قطبـت جبينهـا في اسـتغرابٍ عندمـا قلـت لهـا إننـي أحبهـما جـدًّا وأود أن أكـون رسـامًا.

يجب عليَّ أن أعثر سريعًا على مهنة جادة.

***

14

وصل أصدقائي متسلقو الجبال عشية يوم عودة أمي. قابلتهم في نهاية اليوم، دون أن أشغل بالي بالوقت، وعدنا في حافلة قرابة الرابعة فجرًا. كان أندرِس ومارتا يتغازلان كالحمقى طوال الوقت؛ أنا واثق من أنهما -هما على الأقل- فعلا شيئًا غير تسلق الجبال.

على النقيض، بدا لي أن هناك فتورًا أكثر من المعتاد بين إيلينا وأبِل؛ لا أعرف إن كنت أخلط بين إحساسي ورغبتي.

الحق أيضًا أن إيلينا أشبه بإلهة ثلجية. تنظر إلى الجميع من فوق كتفيها، وإليَّ بشكلٍ خاص، فهي تسخر مني متى سنحت لها الفرصة. أظن أنها إحدى المشكلات التي تعانيها الفتيات الجميلات؛ إذ عليها أن تكون صعبة المنال وإلا فستضطر إلى قضاء اليوم بأكمله في تسديد اللطمات إلى المتملقين.

وددتُ الاتصال بباتريثيا قبل الخروج، لكنني رأيت أنها قد تسيء فهم مسألة الخروج مع ثنائيين آخرين. أمضيت الليلة نادمًا على ذلك، لأنني لم أرغب في أن أكون فائضًا عن الحاجة مع أربعتهم. أَولاني أبِل فقط بعض الاهتمام، وشعرت به كأنه يعطف على جروٍ بائسٍ.

أعتقد أنني أحيانًا أُوجع رأسي بالتفكير أكثر من اللازم.

تعكر مزاجي صباحَ السبت إذ تحتم عليَّ استقبال أمي في محطة (أتوتشا) في نحو الخامسة، وبذلك انتهت إجازتي التي مرَّت بسرعة شديدة. بينما أرتب المنزل رأيت على المنضدة (كوميكس) جو ساكو التي كنت أنوي قراءتها. لم أفتحها حتى، ونفس الشيء مع كتب المدرسة. سأضطر إلى تخصيص الأحد والاثنين للبدء في التدريبات وإعداد الملاحظات!

أمرٌ مقيت.

جرى لقاء أمي أفضل من المتوقع. أتت مثقَلة بحقيبة أكبر من التي ذهبت بها، ثقيلة كالتهمة، وفور وصولها عانقتني كأنها عائدة بعد سنوات قضتها في التبت. عرضتُ عليها أن نستقل سيارة أجرة لكنها رفضت، وفي الحافلة قالت لي أشياء كثيرة عن العائلة؛ كان الجميع يرسلون إليَّ الكثير من التحيات ويرغبون في عودتي. في تلك اللحظة تذكرتُ ابنَي خالي الشريرين ناندو وميجيل، هذين الحيوانين اللذين طالما أغرقا رأسي في النهر وهما يكبرانني بعشر سنوات؛ ما زلت أحتفظ بصورة فقاعات الهواء وهي تخرج من فمي بينما يغطسانني في الماء، وأعتقد أن هذا مردُّ نفوري من الأنهار والبِرَك والشواطئ وأحواض السباحة. ابتسمتُ لأمي، إنها مسكينة. العائلة...

كنت قد أمضيت الصباح في التنظيف بالصابون والإسفنجة والممسحة، لذا بدا المنزل لائقًا بما فيه الكفاية. لم تقل أمي شيئًا عن كفاءتي التنظيفية لكنها، كإنسان آلي، فتحت الثلاجة والفريزر وألقت

نظرة سريعة بعين خبيرة ثم أطلقتها في وجهي: "لكنك لم تأكل شيئًا يا بني..."، وقبل أن أشرع في التبرير، فتحتْ الحقيبة وراحت تعدد: "سلسلة من السجق الإسباني، سجق غزلان، دُرَّاق مجفف، كعكة (لا سيرنيا)، جبنة (إيبوريس)، بيض مزارع، سجق بالبطاطا، برطمان عسل، فلفل أحمر..."، كأننا ذاهبَين لقضاء شهرين في مخيم لاجئين. أخرجتْ من قعر تلك الحقيبة الضخمة لفافات أخرى من الورق الأسمر، ولكي تريحني قالت: "طقمان من الملاءات المطرَّزة من الخالة أكيلينا يا بني، لم أكن لأتركهما هناك، ثلاثة مفارش وانظر أيضًا، علبة جواهر بها بعض الأقراط والحُلي، القليل المتبقي...".

كنتُ جالسًا على الأريكة أشاهد استعراض الثروة ذلك، يخالجني شعورٌ بأن أمي تعاملني كصديقة مرَّت على منزلها لشرب القهوة. ظلَّت تخبرني بأشياء عن العائلة والتركة سأوفرها عليكم.

المهم أنني فرحت بعودتها سعيدة. كانت هذه ذريعة كي أتمكَّن من جعلها تذهب إلى القرية لمدة أسبوعين أو شهر في هذا الصيف.

منذ أعوام طبَّقوا ما يُعرف بالحوسبة الموزَّعة. نظرًا إلى فرضية أن أجهزة الكمبيوتر في أثناء تشغيلها لا تفعل شيئًا في معظم الوقت، فكَّر أحدهم في إمكانية استغلال وقت الاستراحة هذا لمساعدة جهاز كمبيوتر ذي إمكانيات أعلى في إجراء عمليات حسابية. وهكذا، يُوزَّع العمل على العديد من الأجهزة؛ لقد فكروا في هذا الأمر من أجل البحث عن حياة فضائية، إشاراتٍ من المريخيين، موضوع الجينوم...

لو كان في هذا البيت عدة سباستيانات لأمكن تحمُّل الأمر، اليوم أنت، والآخر غدًا... أن نتشارك أُمًّا واحدة لهو أمرٌ جيدٌ للغاية، أما الأمر السيئ فهو أن تُضطر إلى الاضطلاع بالعمل وحدك.

بعد مرور وقتٍ معقول ذهبت إلى غرفتي، متعللًا بأنه ما زال لديَّ الكثير لأذاكره.

لم أفعل شيئًا يُذكر، أمضيتُ جزءًا من الوقت مستلقيًا على السرير أقرأ (هوامش في غزة) لجو ساكو، قصة وحشية. لو صرتُ رسامًا ذات يوم فسأحاول أن أجعل الكثير من الكتب، بما فيها الكتب النصية، محكية في شكل (كوميكس).

ظللتُ جالسًا أمام الكمبيوتر حتى موعد العشاء.

أرسلت بريدًا إلكترونيًا إلى أندرِس:

"كيفك؟ رأيتُ البارحة أن أمورك جيدة مع مارتا. احكِ لي. سلام".

حين راودني شعور بأنني ربما أتلقى منه ردًّا وربما لا (الحق أنني وددت أن يخبرني بتفاصيل مغامرته مع فتاته)، أرسلتُ واحدًا آخر إلى باتريثيا تطلّب مني جهدًا أكبر في كتابته، واستدرجتها فيه لترد عليَّ:

"مرحبًا! لقد استمتعتُ بذلك اليوم، آمل أن تكوني استمتعتِ أيضًا. من أي كتاب أتيتِ بآخر قصيدة أرسلتِها؟ أرغب في قراءة المزيد. سِب[1]".

أمضيت بقية الوقت مع أجهزة محاكاة كاتارينا، بهدف قتل الوقت.

بدا لي غريبًا ألا تُتاح سوى طائرة واحدة من الطائرات التي طرت بها في الأيام السابقة. في تلك اللحظة فسَّرتُ الأمر بأن المبرمجين قد أنهَوا إصدارًا أخيرًا من اللعبة مع طائرة معارك (MALE) مجهزة بشكلٍ مثالي، تظهر وحدها على الشاشة كأنها في انتظاري منذ ساعات. ظلّت صورة الطائرة تدور حول محورها وحولها معلومات تقنية: (Outrider VC)[2]، المدى 200 كم، أقصى ارتفاع 3000 قدم، 800 قذيفة.

---

(1) اختصار (سِباستيان). (المترجمان)

(2) أحد أنواع الطائرات المسيرّة. (المترجمان).

إن الطائرات التي ألعب بها صغيرة بشكلٍ خادعٍ، فالامتداد العرضي للطائرة التي ظهرت على شاشتي بالكاد يتخطى المترين، وطولها قرابة سبعين سنتيمترًا، لكن صورتها تعطي انطباعًا بأنها أكبر بكثيرٍ. الـ(MALE) هو إصدار متوسط الارتفاع وطويل المدى، على خلاف الـ(HALE)[1]، التي تبلغ ارتفاعًا أكبر. كان إصدار المعارك الخاص بهذه الـ(Outrider) أثقل من إصدار الاستطلاع الذي جربتُه من قبل، لهذا فمن المتوقع أن تستهلك المزيد من الوقود. وفضلًا عن ذلك، قلتُ لنفسي قبل بدء التجربة إن عليَّ الأخذ في الاعتبار أثر الطلقات على الطيران، ولا سيما في أثناء المناورات...

يعمل مبرمجو كاتارينا بجِدٍّ، فبمجرد أن تضغط زر التشغيل، يكفُّ المجسم عن الدوران، ويصبح الأمر كأنك أمام منظورٍ حقيقي من داخل الطائرة، وبينما تُفتح بوابة حظيرة الطائرات، تتاح لك الفرصة لتفقد حالة عجلات الهبوط والقلّابات وعجلة القيادة ومضخة الوقود وأجهزة الملاحة. وكلما ارتفعت الطائرة شعرتَ بالهزّات البسيطة فوق الأرضية وقدرة المحركات. بعدئذٍ ما عليك سوى التوجُّه إلى مدرج الهبوط وملء خزان الوقود. عندما تبلغ السرعة نقطة حرجة، تُطلِق القلابات بخفة لترتفع الطائرة بسلاسة، وتُعلِمُك مجسات مختلفة بدرجة الحرارة الخارجية وارتفاع وقوة واتجاه الرياح، فضلًا عن موقعك بالتأكيد.

بينما جيراني بالأعلى يشاهدون على التلفاز برنامجًا تافهًا بأعلى صوت، وبينما يسعل المُسِن المجاور بيأسٍ، وبينما تُطلق السيارات في الشارع أبواقها، وبينما تطنُّ خزانات المياه من حيث لا أدري وتستمع أمي إلى الراديو... أنا أطير!

---

(1) (MALE):- Medium-altitude, long endurance - (HALE): High-altitude, long-endurance وهما نوعان من الطائرات المسيَّرة. (المترجمان).

تدركون أنني مُنزوٍ في غرفتي.

صحيح أن الصور اصطناعية نوعًا ما، لكنني أرى على شاشتي الأرضَ والسماءَ والأنهار والجبال والطرق التي أستعملها كمرجعياتٍ على جهاز ملاحتي. يمكنني الانخفاض حتى رؤية الحقول والبيوت، أو الارتفاع في حلقاتٍ متتالية في السماء الغائمة أو تحت المطر. في المهمات الليلية، يمكنني حتى رؤية القمر والنجوم. أطير!

البيانات التي أحتاج إلى معرفتها موجودة على الشاشة، سهمٌ فوق بوصلة يشير إلى الاتجاه الأمامي. يبدو مَيل الجناحين أكثر انخفاضًا، بالنسبة إلى الأرض. هناك مقياس ارتفاع وعداد سرعة ومؤشرات لمستويات الوقود... بعد أن جربتُ (درونز) أخرى ظننت أن تلك الآلة ليس لديها ما تخفيه عني. رحلةٌ جوية روتينية في طائرة ثقيلة، لكنها مرنة في التحكم.

هذا ما قلته لنفسي، إلى أن ظهرت رسالة على الشاشة:

"Target, 2000 m, NNO"

وعلى الفور ظهر مؤشر أحمر يشير إلى الاتجاه بين الشمال والشمال الشرقي، وعدَّاد يتناقص: 1950، 1900، 1800... وصفيرٌ ينبِّه لحدثٍ وشيكٍ. وضعتُ الطائرة، غريزيًّا، على نفس مستوى المؤشر الأحمر وهبطتُّ، ولكن لم يحدث ذلك في الوقت المناسب. عندما أشار العدَّاد إلى 200 قدم رأيتُ ما يمرُّ أمام مقدمة طائرتي وبدا أنه هدف أحمر اللون، يُفترض أنه موضوع على الأرض.

أخطأتُ ذلك الهدف الأول، لكن سرعان ما ظهر تنبيه جديد:

"Target, 3000 m, SSE"

وهو ما اضطرني إلى تغيير اتجاهي والنزول عموديًّا. حظيتُ هذه المرة بفرصة للتموضع على بُعد مئة قدم من الأرض حيث لا يزال

أمامي ثلاثمئة قدمٍ على الهدف. عندما كان على مرمى بصري أضعت أجزاء من الثانية في التساؤل عن مكان زر الإطلاق، وهو زمن كافٍ لمرور هدفي مجددًا من أمام مقدمة طائرتي، بلا مساس.

أصبته في الثالثة. بعد ثوانٍ قليلة من الخطأ السابق أخبروني بالهدف التالي. ارتفعت، استدرت، انخفضت، حددت الهدف، ضبطت منظار التصويب وضغطت الزناد لثلاث ثوانٍ؛ ارتفعت سحابة دخانية فوق ما كان دائرة حمراء محاطة بمربعٍ أبيض. تفقدت مؤشر الذخيرة وتحققت من أنه أعلى من 400 بقليلٍ، وهو ما تبقى من الـ800 التي بدأت بها. أكثر من مئة طلقة في الثانية، عاصفة من الرصاص!

وضعوا لي عشرة أهداف، أصبتُ منها ستة. في الأخيرين، على الرغم من مناورتي بشكلٍ صحيح، افتقرت إلى الذخيرة. داهمني شعورٌ بأن الهدفين الأخيرين متحركان. أشار عدَّاد الوقود، وقت الهبوط، إلى 15 في المئة، وهو مستوى منخفض لكنه ليس خطيرًا. أنهيت هذه الجلسة وأنا أتصبب عرقًا.

كانت هذه كارثة.

نظرتُ إلى ساعتي. كان قد مرَّ ما يزيد على الساعة وأظلم الشارع. لا يزال يسعل العجوز الساكن بجواري، وأمي في المطبخ تُعد العشاء.

العالم الحقيقي المضجر والممل.

***

ألحَّ موسكيتو على الرقيبة أواتيس:

- أؤكد لكِ أنه جيد!

- جيد أم لا، هذه مهمة للفتيان الذين هنا، لستُ على استعداد للمخاطرة بمؤخرتي إذا ساء الأمر.

ظلَّا يتجادلان أكثر من نصف ساعة، وتحلَّى العريف نورث بالثقة الكافية بالرقيبة كي لا ينسحب من نقاشاتهما دون أن ينسى أن المرأة رئيسته، وفي نهاية المطاف هي صاحبة الكلمة الأخيرة.

عاد يلحُّ:

- لا توجد مجازفات؛ لو سار شيء على غير ما يرام فإن المهمة ستبقى مدفونة بين المئتي مهمة التي نؤديها كل يوم، وبخلاف ذلك، أراهنك على وجبة عشاء أن الأمر سينجح بما لا يقل عن ثمانين في المئة.

- أنا من يتعين عليها مواجهة الأمر لاحقًا.

- سأتحمَّل أنا المسؤولية إن أردتِ! فرغم كل شيء، يعهد البروتوكول إلى فريقي بهذا النوع من المهمات.

ردَّت فلورنس:

- الأمر لا يتعلق بالمهمة! ولكن البروتوكول لا يشمل توكيل هذه المهمات إلى عملاء خارجيين، فضلًا عن هاوٍ بالطبع.

- هاوٍ؟ كان عليكِ مشاهدته. إنه يمتلك حاسة سادسة تجاه هذه الأشياء. أتمنى لو يحظى فتيتي، بعد أشهر من التدريب، بنصف ردود فعله. وفضلًا عن ذلك، إذا أسندتِ إليه المهمة وأدَّاها بنجاحٍ فستوضحين الأمر في تقريرك الأخير. هيا يا امرأة، فلتتجرئي ولو مرة، حاولي فعلها ولو مرة واحدة.

تأمَّلت الرقيبة أواتيس العريفَ نورث وأدركت لماذا يسمونه موسكيتو؛ كان لزجًا، لحوحًا، ماكرًا، قادرًا على ثقب الجلد وامتصاص الدم من خصومه حتى يتركهم منهكين.

فسَّر العريف نورث صمتَ الرقيبة أواتيس على أنه إذن بالعودة إلى تفكيره المنطقي.

- فكري يا بولدوج، فكري.

فلورنس و. أواتيس، رقيبة أولى، مهندسة اتصالات لا سلكية ومتخصصة في الحرب الإلكترونية، لم تسمح إلا لشخصين أو ثلاثة من القاعدة بمناداتها بذلك اللقب، وأحدهم هو العريف نورث.

العريف مارتن ج. نورث، خبير في تكنولوجيا المعلومات والرياضيات، مدرِّب في مجال الاستطلاع والمعارك الإلكترونية، في سويعات فراغه يدرس لنيل الدكتوراه في الفلسفة. علمَ أن المرأة بعد تلك الفترة من الصمت توشك على الاستسلام. تخلَّى عن نبرته الحماسية التي تحدث بها منذ دقائق، واتخذ واحدة أخرى مقنِعة، متحاشيًا جدالات بداية الحديث.

قال موسكيتو، الذي واصل فيما تحك الرقيبة رأسها الأصهب:

- تعرفين أنني على حق، نحن الاثنان على حق، ومنذ أشهر ونحن نتحدث في الموضوع. ليس الوضع كما كان في السابق، وفي المستقبل ستختلف الأمور. أما الآن فالمسألة لا تتعلق بإرسال المئات أو الآلاف من فتياننا لقتال المئات أو الآلاف من التعساء الآخرين، لكي ندفع رواتب وحوافز، أو ينتهي بنا الأمر إلى أن ندين بمعاشات للأرامل. يؤدي فتياني عملهم من بُعد أحد عشر ألف كيلومتر، من التاسعة إلى الثالثة ومن الرابعة إلى العاشرة، وهم يؤدونه بدقة شديدة وبمقابل أقل بكثيرٍ. حسنًا، ذلك الفتى ليس من الفريق، لكنه أقرب إلى الهدف، ولن

نخسر شيئًا من التجربة. هل تريدين أن نراجع الحسابات من جديدٍ؟

- لا.

ارتبك نورث من رنَّة صوت أواتيس والصمت الذي تلاها. لم يدرِ هل جاء الرفض بخصوص مراجعة التقرير الذي أعدَّاه فيما بينهما أم بخصوص العملية برمتها. نفخ العريف بفمه ورفع يديه مستسلمًا.

لكن أواتيس سألته:

- في كم فكرت؟

- أربعة.

- لا أزيد ولا أقل، وأريد أن يكون الڤيديو على طاولتي بعد ساعة من انتهاء العملية.

كاد العريف نورث يعانق رئيسته لولا أنه لا يمتلك هذه الصلاحية. قبض كفيه منتصرًا، وابتسم واتجه ناحية الباب.

وقبل أن يختفي، قالت بولدوج للعريف بصرامة:

- ولا كلمة واحدة إلى أي شخص، اتفقنا؟

***

15

ثمة أيام تشرق ممسوخةً وتنتهي بطريقة غير متوقعة.

في تلك الليلة رنَّ الهاتف بينما نتناول العشاء. قالت أمي وهي تنهض: "لا بد أنه من القرية"، لكن لا، إنها (تلك).

لم أكن أنتظر أن يقترحوا عليَّ جلسة في ذلك اليوم، ولا سيما بعد اختبارات المساء، التي لا بد من تسجيلها في (المصنع)، أو أيًّا كان اسم الموقع الذي يطورون فيه تلك البرامج. كان يومَ سبت، يومًا غير اعتيادي، وفوق ذلك تركت كاتارينا رسالة غامضة: "تفقَّد البريد وأجِب بسرعة".

تظاهرتُ بعدم الاستعجال، لكنني كنتُ أموت من الرغبة في الذهاب إلى غرفتي. أنهينا العشاء، وتركت أمي تواصل مغامراتها العائلية، وحاولت أن أجيب بأفضل ما استطعت عن أسئلتها حول ما فعلته في تلك الأيام؛ لا شيء سوى المذاكرة بالطبع.

قالت رسالة البريد إن جماعة كاتارينا راضية عن تجربتي للـ(درون) في ذلك المساء، واقترحوا عليَّ محاكاة بنفس الجهاز، لكن ليس في الحادية عشرة والنصف مساء، وإنما في السابعة صباحًا. كان في استطاعتي أن أرفض، بالتأكيد، لكنهم أخذوا يلمحون إلى أنهم سيقيِّمونها "بخصوصية شديدة".

بدا الأمر غريبًا. أجبت بالموافقة، بأنني أقبلها.

لطالما كان الاستيقاظ باكرًا بمنزلة عقاب لي، ولا سيما في عطلة يوم الأحد، لكن الاقتراح أثار فضولي. إنها أول مرة بعد خمسة أشهر يحاولون فيها تغيير المواعيد المتفق عليها، وافترضتُ أنها ستكون تجربة غريبة بعدة لاعبين، لعلهم متمركزون في أماكن كثيرة من العالم. أهو تجمُّع لسِربٍ من (الدرونز)؟ أم معركة جوية؟

حاولت النوم باكرًا، لكن رغم أنني أطفأت النور قبل الحادية عشرة، لم أستطع النوم؛ أنا أقرب إلى بومة، لذا قرب الثانية عشرة شرعت في القراءة. كنت أعرف أنني في الصباح التالي سأكون منهكًا ولن أتجاوز التحدي، لا بأس، ما أهمية مئة يورو تقريبًا.

تركتُ الكمبيوتر على وضع (standby) كي يشتغل عند السادسة والنصف؛ إذ لا أرغب في اللجوء إلى المنبه في ذلك التوقيت لأن أمي تنام نومًا خفيفًا. ذهبت إلى الحمام وغسلت وجهي، مع أنني احتجت إلى الاستحمام. في السابعة إلا عشرين دقيقة كنت أنتظر متوترًا أمام الشاشة. قلَّبت في البريد لتمضية الوقت. رسالة من باتريثيا، على ما يبدو فهي بومة أيضًا؛ "كتاب بينيديتي اسمه (الجَرْد الأول)"، ثم أغلقتُ البريد. بعد مرور خمس عشرة ثانية نسيت اسم الكتاب.

دخلت المصنع في السابعة إلا عشر دقائق، أظهرت لي الشاشة نفس الـ(Outrider) الخاصة باليوم السابق. رغم تطابق المواصفات، فقد

احتوت على 500 قذيفة، هل سيكون ذلك هو التحدي -الأصعب- حتى الآن؟ ظهر مؤقت به عدٌّ تنازلي.

قبل السابعة بدقيقة فُتح باب الحظيرة، وظهرت على شاشتي لوحة التحكم بالطائرة. كما حدث في المهمات السابقة من اللعبة، ترجمتُ من الإنجليزية: "أربعة أهداف، ذكور، الوقت المقدَّر للعودة إلى الحظيرة: خمسون دقيقة، الفريق: اعتيادي". لا شيء آخر.

أدرتُ المحركات، سلكتُ المدْرَج، ومتنفسًا بعمقٍ تهيأتُ للانفصال. لاحظتُ أن خمولي وشعوري بالنعاس قد تلاشيا. بعدما صرت في الجو، تركت نفسي للشعور اللذيذ بالطفو. لم أكن قد بلغت ارتفاع ألف قدم عندما وجَّهني مؤشر أحمر نحو ما ينبغي أن يكون وجهتي. حتى ذلك الحين لم أنتبه إلى أن المشهد الذي أراه حولي مصبوغ باللون الرمادي، كأن الوقت ليل. شعرتُ بالارتباك لأنه وقت فتح باب الحظيرة بدا كأنه صباحٌ مشرق، وافترضت أنني أرى المشهد من خلال مرشِّحٍ خاص. لا بد أن ذلك هو التحدي! رؤية ليلية!

لكن لو أن الأمر كذلك، فكيف سأميز الأهداف؟ أستكون مضيئة؟

نبَّهتني شارة: "المسافة من الهدف، 4000 متر". أجريت حسبة سريعة واستنتجت أن السرعة التي أطير بها ستقل دقيقة بالكاد. أجهدني تفسير ما أراه على الأرض: شريط قاتم تتخلله أحيانًا نقاط برتقالية محاطة بمستطيلات سوداء. أسرع مخي من وتيرة عمله، وأفسح المجال لأوضاع أخرى من اللعب: رؤية بالأشعة تحت الحمراء. هذه هي! كنت أحلق فوق طريق أسفلتي، به شاحنات وسيارات بركَّاب.

استهدفتُ الأرض عندما أخبرتني الشارة بتبقي 500 متر على الهدف. ظهر على شاشتي العديد من الأشكال المنشورية قاتمة اللون، تتناثر عليها بقع برتقالية، فسَّرتُها على الفور بأنها بنايات-أشخاص،

لكنني لم أجد الوقت لأتوقَّف عند التفاصيل لأنه حينما هبط المؤشر إلى صفر اختفت تلك البقع.

أعلمتني سلسلة من الصافرات، بينما تعرض الشارة أرقامًا بالسالب، بأنني تجاوزت الهدف.

يقولون إنني أتصرف بالغريزة، ولا بد أن الأمر صحيح. يتكيف مخي مع الأوضاع على الفور وما سأشرحه حدث في أجزاء من الثانية. كنت أعرف أنني أطير على ارتفاعٍ شاهقٍ، أن عليَّ الانعطاف إلى الجانب الأيمن صانعًا قوسًا، أنه يكفي وضع منظار التصويب قبل اختيار الهدف بقليلٍ... كنت مستعدًّا لذلك؛ أمضيت الكثير من الوقت في اللعب هكذا.

لكن المهمة تتعلَّق بأربعة أهدافٍ ذكور. كيف لي أن أميزهم من ذلك الارتفاع؟ قلتُ لنفسي: "يجب أن أتعلَّم". حلَّقت مجددًا فوق تلك الصورة المجردة، مقللًا السرعة بعض الشيء، وميزتُ أنواعًا متعددة من البقع الملونة: بعضها سميك وبعضها طويل وبعضها أصغر. بالاستبعاد، لا بد أن الطويلة هي التي تخص الذكور.

درتُ دورةً ثالثة، خافضًا الارتفاع والسرعة. قدَّرت أنه بواقع مئة رصاصة في الثانية ستكفي ضغطة مقتضبة لإسقاط تلك البقع. ضغطتُ مرة، اثنتين، ثلاثًا، أربع مرات، بينما تتمايل الطائرة بخفة لإصابة الأهداف.

اتسم كل شيء بواقعية مدهشة. بعد رشقة الطلقات الأولى شاهدتُ كيف يسقط أحد الأشكال الطويلة على الأرض. افترضتُ أن الأمر نفسه سيحدث مع الثلاثة الأخرى.

عندما ارتفعتُ ألقيتُ نظرة سريعة على عدَّاد الطلقات الذي أشار إلى 156، لم أستنفد الذخيرة هذه المرة.

أعلنت شارة: "End mission"، وظهر سهمٌ يشير إلى طريق العودة. هبطتُ على المَدْرج برفقٍ وتوجهتُ نحو الحظيرة ذات الباب المفتوح. كان ثمة ثلاث حظائر أخرى مغلقة الأبواب. استعصى عليَّ اعتياد فكرة أن أبعاد الباب لا تتعدى ثلاثة أمتار عرضًا ومترًا ونصفًا طولًا.

فور انغلاق باب الحظيرة، أظلمت الشاشة مرة أخرى، ثم اختفت ألواح التحكُّم بالطائرة. شكرني (المصنع) على تلك المهمة التي تمت بنجاحٍ.

استغرقني الأمر بعض الثواني لإدراك أن ذلك الأمر انتهى. على يمين الركن العلوي، أشارت الساعة إلى 7:41، فذُهلت لأنني بالكاد استغرقتُ أربعين دقيقة، وشعرتُ بالإنهاك مدركًا أنني نمت نومًا قليلًا وسيئًا في تلك الليلة. ماذا كنت سأفعل بمفردي في البيت وأنا مستيقظ في تلك الساعات؟ اندسستُ في السرير ونمت كالأطفال.

في حدود الثانية عشرة دقَّت على الباب طرقاتٌ لمفاصل أصابع. إنها أمي: "سباستيان، هل أنت بخيرٍ؟".

***

استعدَّ الجميع لكي تقام المراسم عند غروب شمس ذلك اليوم نفسه.

أمضى أعضاء (مجلس الشيوخ) الستة اليوم في زيارة العائلات حالما أنهت تجهيز متوفَّيها، متناوبين على تلاوة أجزاء من الكتاب المقدس[1].

باستثناء العجائز الطاعنين في السن والحبالى والرضَّع، اجتمعت القرية بأكملها في المقابر، حتى الأولاد الأصغر التزموا الحذر والجدية إزاء المشهد المأساوي.

حُفرت قبور الرجال الثلاثة على مقربة شديدة من بعضها؛ أما الرابع فهو قبر المرأة، وحُفر في مكان منفصل بعض الشيء.

بعد إيداع الأجساد في القبور الضحلة، قُرئت آيات من القرآن ودُعي بالرحمة للموتى وآبائهم وأبنائهم. صُليت صلاة الجنازة وأُعيد إلى التراب ما جاء منه، ثم في النهاية وُضِعت الحجارة التي انتظمت لتكوِّن جثوات صغيرة.

فوق قبر المرأة، على مستوى بطنها، وضع زوجها حجرًا نظيفًا ومستويًا.

لم يكن ثمة بكاء هيستيري ولا صرخات ثأر أو غضب، تأجَّل كل شيء إلى أيام الحداد الثلاثة اللاحقة.

عاد الموكب، في صمتٍ، إلى القرية بينما تُكمل الشمس مغيبها، بدأت تحل ساعة المغرب، ساعة الظلمة.

رجع حزرات باناراس وهو يفكر أن أسوأ توقعاته قد تحقق في نهاية المطاف. كان يعرج كأن ساقه تحتفظ بذكرى حديثة العهد للعيار الناري الذي أصابه قبل أربعين عامًا.

***

(1) وردت في النص بهذا اللفظ، والمقصود هو القرآن الكريم. (المترجمان)

16

أحيانًا أفكر في أن هذا العالم أصبح مجنونًا. اليوم، الجمعة، أخذت قطار الضواحي لأذهب إلى وسط المدينة، حيث قابلت باتريشيا. كانت هناك امرأة شابة وجميلة، لا بُدَّ أنها لم تتجاوز الثلاثين عامًا، تسافر ومعها عربة أطفال وأربعة أبناء. لا بُدَّ أن أكبرهم كان في الثامنة، وفي لحظةٍ ما قال إنه يريد التبول؛ راحت أمه تشتمه وتضربه على رأسه وهي تصرخ في الوقت نفسه على طفلتين لا تستطيعان البقاء هادئتين وتهز بعنفٍ رضيعًا يبكي بين ذراعيها. لم تكن كلماتٍ عاديةً، أي كلمات غضبٍ لحظيٍّ لأم، بل أكثر فظاظة، من نوع الشتائم الذي يتفوَّه به السكارى أو الأشخاص سيئو السمعة. تمكَّن الطفل من الإفلات من ضرباتها، تسلَّل من بين سيقان الركاب، فتح الباب الذي يصل عربة بأخرى وتبول في الفراغ الموجود بين العربتين. عند عودته قال لأمه: "ماما، هل رأيتِ كيف أنه لا يوجد خطر؟". فجأةً، وبكل حنان، احتضنته الأم وقبَّلته موزعةً المداعبات بين أبنائها الآخرين. وكأن شيئًا لم يحدث،

أخرج الطفل من حقيبة أمه جهاز (بلايستيشن) وتسلى باللعب به بقية الوقت. نزلتُ قبلهم؛ لذا لا أعرف كيف انتهت رحلتهم.

جعلني الأمر أفكر. ذلك الطفل، كيف يميز العالم الحقيقي من الآخر الذي يعيشه في شاشته؟ تهينه أمه وتضربه على الملأ، ومن يدري أي أمور أخرى يضطر إلى معايشتها في منزله. لعل تلك اللعبة، أيًّا كانت، تخفِّف عنه وتجعله يحتمل قسوة الحياة، لكن لا بد من رؤيته في سن الثامنة عشرة، في الثامنة والعشرين، فأنا محظوظ رغم كل شيء؛ كان أبي كذابًا ووُلدت أمي لتكون ضحية، لكن لا يمكنني أن أقول إنهما أساءا معاملتي.

أرعبني التفكير في إنجاب أطفال يومًا ما. ينبغي للناس أن يخضعوا لاختبار ليتمكَّنوا من اتخاذ قرار مهم كالإنجاب.

يحدث الأمر نفسه مع غيرها من الأمور الجنونية. في إحدى الحانات التي دخلتها أحيانًا مع أصدقائي لافتةٌ على المشرب تقول: "لا نفك أوراقًا نقدية من فئة 200 و500 يورو". رأيتُ أكثر من مرة كيف طلب أحد الظرفاء من النادل -مقلدًا غيره من دون شكٍّ- بينما يناوله ورقة بخمسة: "هلَّا فككت لي هذه الخمسمئة؟" بعيدًا عن المزحة، فكرت أنا وأصدقائي: هل حقًّا يوجد أناس في (بابيكاس) يذهبون إلى حانة مُزرية، أرضيتها مليئة برؤوس الجمبري وأنوية الزيتون، من أجل فك عملات من فئة 500 يورو أو دفع واحدة منها؟ ينقصم ظهر أمي لمدة اثنين وعشرين يومًا في الشهر، وكومةٍ من الساعات يوميًّا، لتحصل بالكاد على ذلك المبلغ، وأراهن برقبتي على أنها لم ترَ من قبل واحدة من تلك الأوراق.

أحكي هذا الأمر لأنني تحدثت عنه مع باتريثيا ونحن نتمشى. نعم لقد رأيتُ أوراقًا من فئة 500 يورو، وكانت عددًا، لا أعرف ستًّا أم اثنتي عشرة، لأنني لم أجد الوقت لعدِّها، وقطعًا لم تكن ملكي.

حدث الأمر منذ شهور، في الصيف، في الشارع الذي توجد فيه (الجمعية). رافقت بعض زملاء الدراسة لشراء كتاب سخيف من مكتبة قريبة، "موجا" أو شيء كهذا، أعتقد أن هذا اسمه، فالتقى أحدهم أخاه وأصدقاءه. كانت معهم سيارة رائعة مركونة في الصف الثاني، رغم وجود ركنات كثيرة في الخلف، وسمحت أبواب السيارة المفتوحة لموسيقى الـ(باكالاو)[1] بالخروج بأعلى صوت. لا أعرف كيف لم يشتكِ الجيران أو يتصلوا بالشرطة.

بالنسبة إليَّ لا يعجبني أولئك الفتية، لا أعرف لماذا. تحدثوا برهة، ثم أخرج أحدهم -بينما يفتش عن علبة التبغ في جيب قميصه ولا أعرف إن كان من دون قصدٍ أم بغرض التباهي- بعضًا من الأوراق من فئة 500، وسألَنَا: "هل رأيتم هذا من قبل يا شباب؟".

لا أتذكر ما حدث بعد ذلك. لم تبهرني كثيرًا تلك الأوراق البنفسجية، ما جذب انتباهي هو أن فتى لا بد أن عمره لم يتجاوز التسعة عشر عامًا يحملها في جيبه كشيء عادي. ثم كانت السيارة البراقة، وتلك السمَّاعات التي لا بد أنها تساوي مبلغًا محترمًا. من أين أتى بذلك المال؟ لا أعتقد أن أبويه منحاه إياه، فهما على الأرجح يعملان في البناء، أو في مكتبٍ على أفضل تقدير. ربما تعمل الأم في تنظيف البيوت.

بينما أتذكَّر هذا الأمر برفقة باتريثيا شعرتُ ببعض الخزي، مثلما شعرت به عند رؤية الطفل وهو يلعب بـ(البلايستيشن). لم يخطر ببالي حتى أن أخبرها بأن لديَّ بعض المال في البنك، لكنني أحس أيضًا ببعض الوساخة حين أتذكر كيف أجنيه.

---

(1) نوع من الموسيقى ظهر في مدينة بالنثيا عام 1983 ويتميز بتكرار الإيقاعات وتعديل الأصوات. (المترجمان)

في لحظة ما من حديثنا قلت لباتريثيا:

- أعتقد أن الحصول على المال يحتاج إلى بعض الثقافة.

ردَّت:

- آه، حقًّا؟ هل تقصد أن الأشخاص المثقفين فقط يمكنهم كسب المال؟ هذا أكثر أمر رجعي سمعته على الإطلاق.

- لا، لا، أقصد أن الناس الذين لا يتمتعون بالثقافة لو عثروا فجأةً على وفرة من المال بين أيديهم، يمكنهم ارتكاب أكبر الحماقات.

قالت باتريثيا بتهكُّمٍ:

- شراء المخدرات وما شابه، هذا ما تقصده، أشياء يفعلها الناس غير المثقفة، حسب كلامك.

أجبتها بقليلٍ من الغضب:

- كلا...! أنتِ تحوِّرين كلامي. ما أقصده أن الثقافة يجب أن تأتي في المقام الأول، فبهذه الطريقة لن يفعل الناس ترهات لا بالمال ولا من دونه.

- حسنًا، جيد جدًّا، ولكن بما أن الناس ليسوا مثقفين دائمًا، فهذا يعني أن... كهربائي جيد، مثلًا، لا يمكنه أن يكسب أكثر من... ما أكبر مبلغ كنت لتدفعه لكهربائي جيد؟

إنها تحبُّ الجدال.

ليست باتريثيا ممن يُقال عنهن فتاة جميلة، ولا قبيحة كذلك. ليست طويلة جدًّا، وتبدو بدينة قليلًا بالنسبة إلى الموضة الحالية، لكن يمكن الحديث معها وتشارُك أفكار جديرة بالتأمل؛ قرأتْ كثيرًا، يتضح هذا من طريقتها في الكلام.

تحدَّثنا عن مؤلفي كتب، لم تملك أدنى فكرة عن أناس مثل إيسنر أو ساترابي أو جيبونز أو ساكو أو روكا أو كرامب[1].

حسنًا، في المقابل لم أقرأ لآخرين ذكرتهم هي.

صار موعد وصولي إلى البيت يزداد تأخرًا بمرور الوقت. أظن أنني لو خنصرتُ خمس دقائق كل أسبوع، فخلال وقت قليل لن تتمكَّن أمي من البقاء مستيقظة لانتظاري في نهاية الأسبوع.

البارحة، السبت، سلَّمتني أمي ظرفًا من البنك، فتحته كالمعتاد، متأكدًا أنه مبلغ بمقدار 100 يورو.

ذُهلت، كانت 300!

أتصوَّر أنه بسبب التجربة الباكرة في الأسبوع الماضي، وأفضل الأمور ما حدث اليوم، هذه الليلة؛ إذ تلقيت رسالة من كاتارينا تقول:

"فريق شركتي راضٍ جدًّا عن عملك؛ ربما ستروقك معرفة أنهم أهَّلوك إلى مجموعة A+.

الثلاثاء القادم في الساعة 23:00، بتوقيتك، لديك مواجهة مع تشاندرا. أتقبل؟ أجب سريعًا".

قلت نعم، بالتأكيد.

أحيانًا أتمنى لو أستطيع أن أخبر أمي بالأمر. هل سيأتي اليوم الذي أستطيع فيه الحديث عن تلك الأشياء مع باتريشيا؟

***

(1) الأمريكي ويل إيسنر، والإيرانية مرجان ساترابي، والبريطاني ديف جيبونز، والمالطي الأمريكي جو ساكو، والإسباني باكو روكا، والأمريكي روبرت كرامب، وجميعهم كتَّاب ورسامو قصص مصوَّرة. (المترجمان)

17

تشاندرا جيد جدًّا، بل رائع.

في ذلك الثلاثاء لم أستطع انتزاع منازلته من رأسي. أعلم أن فوق عاتقي مذاكرة كثيرة للفصل الدراسي الحالي، الذي سأجتازه في يونيو، لكنني أحصل في الامتحانات الجزئية دائمًا على درجاتٍ أقل مما أريد، وليس لديَّ رغبة في دخول التخلفات.

في العاشرة والنصف كنت في غرفتي، بعدما تناولت العشاء وودَّعت أمي، متعللًا بأن لديَّ الكثير من المذاكرة.

حاولت التركيز على المباراة التالية. تذكرت أبي وهو يؤدي تمارين الإطالة لأصابعي، احتجت إلى مرونتها، لكن قبل كل شيء يجب أن يكون ذهني صافيًا. كانت المرة السابقة قتالًا ثنائيًّا وصعَّبوا عليَّ الأمر: في أرض مجهولة، بلا أسلحة تقريبًا... لا بُدَّ أن تشاندرا أخذ هزيمته على محملٍ شخصي، ومن المحتمَل أنه يستعد لهزيمتي. تساءلت: "تُرى أين هو؟".

في الحادية عشرة إلا عشر دقائق أدخلت بياناتي التعريفية ودخلت. قبَلني (المصنع)، لكن الشاشة بقيت سوداء، واستمرت على هذه الحال تسع دقائق أخرى.

قبل دقيقة واحدة من الحادية عشرة ظهر خطٌّ أبيض رأسي، وأخذ في الاتساع حتى ملأ الشاشة كلها. فهمت: لقد فُتِح باب حظيرة طائرات. ما رأيته أمامي كان مدرجًا تلفحه الشمس، ووجدت في الأسفل لوحة تحكم في (الدرون). ليست الـ(Outrider) التي طِرتُ بها من قبل، بل هي نوع آخر مختلف.

أدرتُ المحركات وخرجت من الحظيرة، عندئذٍ ظهرت طائرة أخرى على يساري، لم أعرف طرازها، لكنني افترضتُ أن طائرتي مثلها. بدا أنها ستكون معركة جوية وتذكرت ألعابًا أخرى تدرَّبت عليها بالفعل. لا شك أن مَن ظهر بجانبي هو تشاندرا، وعلى أحدنا أن يقضي على الآخر. افترضت أنه يعرف ذلك الجهاز جيدًا، فالمصنع لن يُسهِّل الأمر عليَّ.

سبقني على المسار وأقلع سريعًا. خشيتُ أن يحاول اصطيادي أرضًا وقت إقلاعي، لكنني فكرتُ في كونه شديد المكر. كان ذلك سيكلفني خسارة 100 يورو، لكنه لن يُحسب له إنجازًا. عند تقدُّمي أدركت أن شيئًا ما يعمل بصورة سيئة. أظهرتْ طائرتي مقاومة كبيرة، فألقيت نظرة على لوحة المعدات والفرامل والمحركات والقلابات... عندئذٍ رأيت شيئًا لم ألاحظه قبلها، أربعة خطوط خضراء تحت شارة (rockets). حينها فهمت: تحمل الطائرة صواريخ أخرى تحت الأجنحة، هذا بالإضافة إلى الذخيرة العادية، 900 رصاصة. سوف أطير بحمولة زائدة لجزء من الرحلة.

يعمل عقلي بسرعة كبيرة في تلك الحالات، ولكن حتى ذلك الوقت لم أدرك أنه لا أنا ولا تشاندرا قد تبادلنا التحية، وأنهم لم يبلغوني

بالغرض من المهمة. من ناحية أخرى تذكرت شكل طائرته التي لا تحمل صواريخ، أما طائرتي فنعم. هل أتاحوا لي أنا هذه الميزة؟ أم أنها ليست ميزة؟ فالقتال الجوي بين قاذفة قنابل وطائرة مقاتلة دائمًا ما ينتهي بفوز الأخيرة، إنه تقريبًا أحد قوانين الفيزياء.

تمكَّنتُ من الإقلاع ضاغطًا على المحركات. لم تظهر طائرة تشاندرا، ومما لاحظته على اللوحة، لم يوجد رادار يمكنه تحديد مكانها، وهو ما يعني أنه قد يكون في ذيلي، وقد يمطرني بالطلقات في أي لحظة، أو يظهر عن يساري أو يميني ليحدث الأمر نفسه؛ لم يرقني ذلك! ولعنت المصنع لأنهم وضعوني في موقف لا أُحسد عليه. الأمر لا يستحق العناء! أوشكت على الاستسلام والعودة والهبوط مرة أخرى.

حينها أُضيئت لوحة التعليمات، وأخذت أفك شفرات باللغة الإنجليزية. "هو يحدد الأهداف، أنت تدمرها".

قلت في نفسي: "آها، هكذا إذن! الأمر أبسط مما ظننت...".

عبَرَ تشاندرا بسرعة شيطانية خلال منظاري. تعيَّن عليَّ اتباعه، وقد كان. ناورت في لمح البصر، ودفعتُ المحركات إلى أقصى سرعة بينما أبحث عنه، لكنه لم يكن في مجال رؤيتي. ظهرت نقطة خضراء في الجزء العلوي وفهمت أن عليَّ التوجه إلى هناك، لذلك بدأت في الاستدارة...

بدا كل شيء يهتز بينما تزداد أرقام مقياس الارتفاع صعودًا أكثر فأكثر. كما قلت، لم أكن أعرف طراز الطائرة، لكني أدركت أنها مصمَّمة للتحليق فقط، وليس للاستعراضات الجوية. وفجأةً، بينما كان مؤشر القدرة عند اللون أحمر، بدا أن الجهاز يتباطأ، وانطفأت أجهزة التحكم، وبدأت أضواء المنظار تتغير بين اللونَين الأزرق والبني. شرعت الطائرة في الانهيار والسقوط على الأرض مثل حجرٍ! ضغطت زرَّ التشغيل... ولم يحدث شيء.

قلت لنفسي إن كان ذلك ما أرادوه فلا بأس، فلتتحطم الطائرة. في "الواقع"، أنا في غرفتي ولا بد أن أمي تتخفف من ملابسها لتخلد إلى النوم. كل شيء على ما يرام، ليس هناك خطر. سأستسلم للموت دون أن أُصاب بسوء. بمجرد تحطمها، سيُبلغني المصنع بشيء ما، وسأغلق الكمبيوتر وأذهب إلى النوم، فهم لم يمنحوني حتى فرصة التعرُّف إلى تلك الطائرة، إذن فليذهبوا إلى الجحيم!

لا أعرف كم مضى من الوقت، ثانية أو اثنتان، أو ربما عشرة. صدرت من الشاشة شبه المعتمة صافرة إنذار، وأخذت تتكرر مرة تلو أخرى. ربما هي تحذير من المسافة عن الأرض، لكنني كنت على عماي.

فجأةً انتقل منظوري إلى "خارج" الطائرة ورأيتني أسقط. لم أملك أدنى فكرة هل كنت على بُعد مئة قدم من ملامسة الأرض أم ألفين، لكنني عرفت ما يجب فعله. ناورت بالقلابين الأمامي والأيسر بالتناوب، وفي نفس الوقت أدرت دفة توجيه الذيل، محاولًا تغيير زاوية السقوط. آلمتني أصابعي من المجهود ولاحظت كيف تهتز الشاشة. وفجأةً تحوَّل ما بدا خلفيةً بنية اللون في المنظار إلى شريط أزرق، كان في البداية خطًّا واحدًا فقط. الطائرة تستقر! ظللت أحاول، وعندما احتل الشريط الأزرق جزءًا من الشاشة، أدرت المحركات، وعادت لوحة التحكم للإضاءة!

كنتُ أتصبب عرقًا، لكنني لدقائق استمتعت بطيران لطيف، محاولًا التعود على إمكانيات الطائرة، دون أن أنسى أن ما بين يديَّ قاذفة قنابل ثقيلة أكثر من كونها طائرة مقاتلة خفيفة. لا مجال للدوران أو الاستعراض! ومع ذلك، تحلَّت الطائرة بالرشاقة.

ظهر تشاندرا مجددًا في مجال رؤيتي، وعرفت الآن كيف أتبعه. سهُلَ عليَّ هذه المرة أن أتموضع في ذيله. تلقيت رسالة منه:

"Good! Follow me!"

فتبعته. رأيت على الشاشة كلمة: "Target!" دون أن أعرف ما يجب عليَّ فعله، لكن تشاندرا مال نحو الأرض وأشار بشعاع ليزر أحمر إلى موشور بني اللون. كان مجرد وميض، لكنني مِلت مثله وأطلقت رشقة صغيرة من الطلقات، فخرجت من البقعة سحابة دخان.

فهمت اللعبة. هو يشير، وأنا أطلق. كانت سرعته شيطانية واعترفت بقدرته على تحديد الأهداف دون أن يخطئ ولو مرة واحدة. ومن ناحيتي أخذ تحكمي في طائرتي يزداد تحسنًا، فصارت أكثر طواعيةً مما توقعت، بل غدا الأمر بسيطًا في النهاية؛ إذ كفى وجود الانعكاسات المناسبة لكي أرى الليزر وقت توجيهه ولكي أناور معه. في أربع مرات، تغيرت الرسالة إلى "Rocket!" من أجل تدمير أهداف أكبر. أخذت أطلق الصواريخ الأربعة واحدًا تلو الآخر، وحسبما رأيت فقد أصابت الهدف.

فقدتُ الإحساس بالوقت. لم أعد أعرف أكنَّا نلعب من نصف ساعة أم من ساعتين. أشار مقياس الوقود إلى عشرين بالمئة، ونفدت الذخيرة التي بدأت بأقل من خمسين خرطوشة. كان لا بد أن ينتهي الأمر بين لحظة وأخرى، لكنني لم أعرف أين أو على أي مسافة يقع مهبط الطائرات. وبالفعل، بدا أنه انتهى. وجب على تشاندرا الاستدارة والتموضع على يساري. كما أخبرتكم من قبل، باتت واقعية الألعاب اليومَ مذهلة. رأيت خوذته وكيف استدار رأسه نحوي، كيف رفع إبهامه الأيمن لتهنئتي. أوشكت على فعل الأمر نفسه، لكنني تذكرت أن ما يحدث ليس حقيقيًا، فلم أفلت ذراع التحكم بالطائرة من يدي.

ثم حدث الأمر. أدار تشاندرا يده وإبهامه نحو الأرض. كدت أتخيل أنه ابتسم بخُبثٍ. اختفى من شاشتي إلى أسفل وسمعت ضوضاء عبر

السمَّاعات، كأنها رشقة من الطلقات. خرجت الطائرة عن السيطرة وظهرت رسالة على الشاشة:

"Danger! Damages to wings!"

لقد أطلق النار عليَّ غدرًا!

لاحظتُ ارتفاع نسبة الأدرينالين لديَّ، وخلال لحظة شرعت في مطاردته واستعمال الذخيرة الضئيلة المتبقية معي. استدرت ولكن لا أثر لطائرته. حاولت مرة أخرى تعقبه بصريًّا، لا شيء. تصلَّب غضبي أمام الشاشة، وبات هدفي للحظة هو العثور عليه واصطياده، لكنها مهمة مستحيلة. فعلى الرغم من فراغها من حمولتها، كانت طائرتي أثقل وأقل قدرة على المناورة من طائرته. لا بد أنه في ذيلي، وزرُّ زناده على مسافة مليمتر واحد من إبهامه. لماذا لم يطلق النار ويقضي عليَّ؟ كنت مرهقًا، وأتصبَّب عرقًا، وقد أغضبتني تلك المناورة من (المصنع). سألت نفسي "ماذا يريدون مني؟"، بينما تومض الأضواء الحمراء لتحذرني من الأضرار التي لحقت بالأجنحة.

قلت لنفسي لا يمكن أن أستسلم للهزيمة. سأحاول أن أهبط بالطائرة، على الأقل، وهو ما سيُعد بالفعل انتصارًا، انتصاري، هذا إن لم يطلق النار عليَّ قبلها.

انخفضتُ. بحثت عن مكان للهبوط. ثمة تضاريس وعرة وشديدة الانحدار أسفل بطن طائرتي، شيء أشبه بحقلٍ بركاني مكسو بالحجارة. خططتُ لتقليل استهلاك الوقود، وبحثت عن جانب هنا أو هناك. لا شيء. كانت أي محاولة لإرساء الطائرة لتصبح انتحارًا، حتى لو افتراضيًّا.

ظهرت نقطة خضراء في الجزء العلوي من الشاشة. تذكرت تشاندرا وتمنيت مرة أخرى أن أجده هناك، مع تجدد رغبتي في محاولة تفريغ مشط سلاحي عليه، لكن تشاندرا لم يكن هناك. استغرقني الأمر بضع

ثوانٍ لأتعرف على هذا الشيء، ووقتًا أطول قليلًا لمحاولة معرفة ما يريدونه مني. إنه جنون أصيل.

اقتربتُ. كانت هناك مروحية شحن عملاقة تحلق على مسافة قصيرة، وشيئًا فشيئًا فُتِح الجزء الخلفي منها، وتدلَّت منه بوابة ضخمة إلى أن وُضِعت أفقيًا على الأرض. أشارت النقطة الخضراء موكِّدةً أنه يُتوقع مني أن أتموضع هناك. ابتسمت لهذا العته. قبل أسابيع اقترحوا عليَّ الهبوط بطائرتي على متن صندوق شاحنة، ومرة أخرى على حاملة طائرات مكتظة، ونجحت في ذلك... لكن هذا...!

ابتسمت بينما أفكر في أن الأمر في جوهره هو نوع الأمور التي أحب. في الحقيقة لم أكن أستمتع بإطلاق النار، ولا بالقتال بالسيوف أو ببنادق الليزر أو بأي نوعٍ من الأشياء التي من شأنها تفجير أدمغة الأشخاص من مسافة قريبة. ما يُمتِّعني هو التحدي، وكان لهذا التحدي تأثيرٌ في ذوبان الأدرينالين في دمي. فكرت. فكرت بينما تتحرك وحدات التحكم في طائرتي بسلاسة.

أدهشتني مجددًا واقعية (المصنع). عانيت أمرًا لم يكن في الحسبان؛ إذ إن تَرْك الطائرة تنساب وتأخذ نفس سرعة الجسم الذي تتعقَّبه، والمناورة بها حتى تتموضع على بُعد بضعة سنتيمترات منه، وإيقاف المحركات فجأة، كل ذلك فعلته من قبل، لكن الأمر لم يشمل أن تصنع شفرات المروحية تيارًا قويًا من الهواء يدفعني إلى أسفل ويولِّد اضطرابات حول طائرتي. في المرة الأولى التي اقتربت فيها من الذيل، تأرجحت طائرتي كورقة عصفت بها مروحة، وعانيت لاستعادة السيطرة. حاولت مرة ثانية وعانيت الأمر نفسه. حاولت مرة ثالثة ساعيًا لمواجهة الريح التي هزَّت المركبة بقوة أكبر... أشار مقياس الوقود إلى عشرة بالمائة، صار في المنطقة البرتقالية، وأسفل مني أخذ المشهد المكسو بالحجارة في الاتساع، وهو ما جعل الهبوط فوقه مستحيلًا.

حينئذٍ أدركت الأمر. إن الطريقة الوحيدة لتقليل أثر الريح هي أن أتموضع في وضعٍ رأسي، مبديًا الحد الأدنى من المقاومة. ظل هناك شكٌّ في أن تكون البوابة عالية بما يكفي لاحتوائي، لكن ما من حلٍّ آخر. رغم كل شيء، حاولت تذكُّر أنني حتى لو اصطدمت بهذا الوحش المعدني، فسأظل في غرفتي.

تموضعت في ذيله. ناورتُ حتى انحرف مؤشر الأفق إلى 90 درجة. أخذت أقترب ببطء. تسببت الريح التي ولَّدتها الشفرات في اهتزاز طائرتي، لكنها ظلَّت تحت سيطرتي. قدَّرت أنه لا يزال يتبقى خمسة أمتار، خمسة أمتار من الذعر. ظللت أتقدم، ولاحظت كيف قلَّت اضطرابات تيارات الهواء عند تموضعي تحت بطن ذلك الوحش الفولاذي. أسرعت وناورت للوصول إلى الاستواء الأفقي، أسرعت مرة أخرى، أغلقت المحركات... في أقل من ثانية، كانت الطائرة مستقرة على المنصة.

حينئذٍ ارتخت أصابعي من فوق أجهزة التحكم.

تأمَّلتُ كيف تنطفئ مناظير الرؤية على لوحة التحكم واحدًا تِلوَ الآخر. تنفَّست بعمقٍ. كان قميصي غارقًا في العرق وشعرت بالإرهاق.

أشارت الساعة إلى الثانية عشرة وعشر دقائق "فقط". لم تجهدني أي لعبة، قط، بهذا الشكل.

تشاندرا جيد جدًّا، بل رائع، رغم كونه مخادعًا.

لكن حتى هذه اللحظة، أنا أفضل.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

18

لا وجود لفرصٍ ثانية في الحياة. أحيانًا يبدو أنها موجودة بالفعل، كأن يقول لك المُعلم: "لقد رسبت ولكن تقدم للإعادة وامتحن من جديد". ظاهريًّا، لا فارق بينه وبين الامتحان الأول، لكن الأمر ليس كذلك، لقد عُلِّم عليك بالفعل، ولكل علامة وزنها. لم أستطع تغيير أبي، لم أستطع جعل أمي خلاف ما هي عليه أو منع ما حدث لأختي، لكني أتذكر أنني عندما بدأت اللعب، منذ وقتٍ طويلٍ، كان في وسعي أن أبدأ من الصفر في كل المرات كما يحلو لي، ارتكبت أخطاء وقُتِلت في كل خطوة، لكن اللعبة لم تأخذ في الاعتبار أخطائي ولا سجلي التاريخي. لم تكن الآلة تغفر لي حينما أخفق، بل ببساطة تدعني أحاول أن أؤدي بشكل أفضل في المرة الثانية، والثالثة... حتى أتعلم.

ربما لهذا يُدمن الناس ألعاب الڤيديو، مثل طفل القطار ذاك. أمام الشاشة ليس لدى المرء ما يخشاه. حتى لو سقط على قضبان القطار في أثناء تبوله، يمكنه المحاولة من جديدٍ، فأمه الافتراضية لن

تنزعج. السيئ بالنسبة إليه هو الحياة الواقعية: مهما فعل، يمكن أن يتلقَّى صفعة في أبعد لحظة عن باله.

في ليلة الثلاثاء تلك، من شدة انبهاري بلعبة الڤيديو رأيت كابوسًا. كان تشاندرا ينزع خوذته بينما يرفع إبهامه. حين تعرفت على وجهه، وجدتُ أن أبي هو من يدير يده مصدرًا حكمه عليَّ، ثم أطلق أبي النار عليَّ وأسقطني أرضًا. استيقظت مفزوعًا ولم أستطع النوم بعدها. فكرت في الكتابة إلى كاتارينا طالبًا تكرار المهمة، لكن ما الذي يمكن تغييره؟ أسأُطلق النار على تشاندرا قبل أن يفعلها بقليلٍ؟ على الرغم من كل شيء، أدركت أنه ثَقَب جناحيَّ فقط، بينما كان في وسعه الإجهاز عليَّ. لماذا لم يفعلها؟ بغض النظر عن إصابتي الأهداف التي حددها، لا بد أن الاختبار تعلَّق بقيادة طائرتي حتى المروحية، لكن ما الفائدة من ذلك؟ إثبات أنني مستوى +A؟ إلى أي مدى يجب أن أصل كي أصعد إلى المستوى ++A ؟ ما هو أو من هو الذي يتخيل تلك المهمات؟ كيف ستستمر هذه اللعبة؟ وما هو الإطار الأكبر الذي تنتمي إليه؟

ملعونةٌ هي الرغبة التي انتابتني للذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي. لم يكن ذهابي إلى المدرسة إلا لتفادي مضايقة أمي. الآن بعدما أصبح الإخطار بالمخالفات يحدث تلقائيًّا، عن طريق البريد الإلكتروني أو الرسائل القصيرة، لم يعد من السهل التملص. نعم، لدى أمي هاتفٌ محمولٌ ولم أظن قط أنها ستستعمله، لكنها تتعامل مع الرسائل بشكلٍ جيد.

الحياة الواقعية محيرة. لم أستطع التوقف عن التفكير في أنني عشية البارحة تمكنت من الهبوط بطائرتي (الدرون) داخل مروحية، وهو أمر ربما لم يفعله أحد من قبل. وزملائي، تُرى ما الذي حققوه في تلك الليلة؟ والأساتذة، بألقابهم ورواتبهم ورؤساء أقسامهم؟ شعرت بالتفوق

عليهم جميعًا، والأهم أنني لم أتوقف عن التساؤل: ما هو الواقعي؟ أهو "شيء" في الحياة أن تكون طيار (درون)؟ كانت باتريثيا لتقول لي إننا حين نقرأ كتابًا نصير داخله، نتشارك الحياة مع الأبطال ونعاني أو نستمتع بمغامراتهم، لكن لعبة الڤيديو ليست نفس الشيء. المرء "نفسه" هو البطل. يبدو هذا الاختلاف بريئًا، لكن له خطورته. هل يمكنني تصديق أنني قائد لمركبة فضائية أو غواصة، جنديٌّ في فيلق روماني أو ملازم نازي؟ هل أستطيع تصديق أنني قاتل أو منقذ للعالم؟

تمكنتُ عشية أمس من إرساء طائرتي في مروحية. كان الأمر "حقيقيًّا". تعرقت كثيرًا في سبيل فعله.

أعتقد أنني كنت في حصة الرياضيات عندما بدأت تتبلور في رأسي فكرةٌ ما، تتعلق بأبي.

أبي...

***

التقى نورث وأواتيس في شقة الأول، حاولا التحدث في مناسبات عدة في الثكنة، لكن الأمور الروتينية والمقاطعات حالت دون استمرار المحادثة.

أخرج الرجل بعض زجاجات بيرة (كورونا) المشبَّرة من الثلاجة، وشرائح من الليمون المحفوظة في كيس ذاتي الإغلاق.

قالتها الرقيبة لفتح المحادثة، وهي مستلقية على الأريكة:

- أنت مجنون!

أجاب وهو يضع إحدى شرائح الليمون في الزجاجة:

- حسنًا، أخبرتني بذلك من قبل، لكنكِ شاهدت الفيديو ولديك البيانات؛ أخبرتك أنه جيد وأننا نستطيع الوثوق به.
- لو سار الأمر على خلاف ذلك لكُنتَ الآن في الزنزانة، ولكان على رأسي ضباط يوشكون على قَلي مبيضيَّ، فالأمر لا يحتمل التهريج.
- اسمعي يا بولدوج، في بعض الأحيان عليكِ أن تقامري، ولا يمكنك اتهامي بالخداع؛ كان في حوزتي أربعة ملوك[1] واستحقَّ الأمر رهانًا معتبرًا.

توقف نورث عن الكلام، وأخذ رشفة من زجاجته ثم تابع:

- أم أنكِ تعاتبينني على الفوز؟

نهضت الرقيبة أواتيس من على الأريكة حاملةً زجاجتها في يدها. كانت غاضبة بحقٍّ، لكن غضبها هنا لا يُقارن بنوبة الغضب التي أصابتها عندما اكتشفت أن موسكيتو استخدم نموذجًا حقيقيًّا بدلًا من نماذج المحاكاة. كررت حجةً ذكرتها قبل ساعات:

---

(1) تُعد ثالث أعلى "يد" في لعبة البوكر أن يحوز اللاعب أربع بطاقات من نفس النوع. (المترجمان)

- تبًّا، ألم تفهم بعد؟ لقد عرضتَّ آلة بثلاثة عشر مليون دولار للخطر!

إلا أن نورث راح يعرض حُجَج الصباح بمزيدٍ من الهدوء:

- نعرِّض ألفًا وثلاثمئة عصفور للخطر كل يوم، وتتحدث الإحصائيات عن خسارة اثنين شهريًّا، بسبب أعطالٍ مختلفة أو أخطاء الطيارين أو هجمات العدو، كما حدث مؤخرًا، هل سيُحمِّلوننا مسؤولية ذلك؟ تعرفين أن هذا لن يحدث؛ فضلًا عن أننا بعيدون جدًّا عن نسبة الخسائر المسموح بها، التي حدَّدوها بواحدٍ في المائة حين بدأنا العمليات، بل ويمكنكِ النظر إلى الأمر بطريقة أخرى: لقد أنقذنا ثلاثة عشر مليون دولار لمرات عدة، بإثبات أن عصفورًا يمكنه ولوج مؤخرة مروحية من طراز (تشينوك) أو أي مروحية شحن عملاقة أخرى. من المحتمل أن يضطروا في المستقبل إلى تطوير منصاتٍ طائرة لهبوط المروحيات، أو أنني لست متأكدًا، وسيوضح تقريرنا وهذا الفيديو أن هناك الكثير مما ينبغي فعله.

اتفقت المرأة سرًّا مع نورث، لكنها صمَّمت أيضًا على التحكم المطلق في العمليات من الآن فصاعدًا، إنها تعرف موسكيتو جيدًا لتدرك أن ذلك الرجل لطالما أوشك على اللعب بالنار، فاحتجَّت:

- اسمع يا مارتن، سأخبرك بكل وضوحٍ حتى تفهمني ولو مرة واحدة: كوننا نتفق على أشياء معينة لا يعطيك حرية فعل ما يحلو لك. هنا، أنا رئيسة العمليات، أتفهمني؟ ولا أريد مفاجآت، ربما يتعين عليَّ تذكيرك أنه يعلونا الكثير من الأشخاص الذين لا يتفقون مع هذا البرنامج، وينتظرون خطأ واحدًا لإرسالنا جميعًا إلى الجحيم. أمِن الممكن معرفة لماذا

تركت الطائرة بلا تحكم في بداية المهمة؟ إنها أفعالك المتهورة التي تثير غضبي.

انتصب نورث وهو جالس على الأريكة وأخذ رشفة قبل أن يكمل:

- لم يكن هناك خطر؛ هذا النموذج أكثر تطورًا مما تظنين. لو انخفضتُ لأكثر من ذلك بخمسمئة قدمٍ لبدأ تفعيل التحكم الذاتي في الطيران؛ لم يفعل الولد أكثر من حل مشكلة تتعلق بحالات الطوارئ، وتعيَّن على شخصٍ ما اختبارها مسبقًا. تعرفين بالفعل أن هذا جزءٌ من بروتوكولات الحالات القصوى، بدءًا من العطل المؤقت في وحدة التحكم وحتى فقدان الاتصالات.

- نعم، كإطلاق النار عليه... أكانت هناك حاجة إلى ذلك؟

هزَّ العريف زجاجته نصف الفارغة فتكوَّنت طبقة من الرغوة، ثم قال ضاحكًا:

- كان هذا مزاحًا يا امرأة! ثأرًا شخصيًّا من الصبي، ولكنه أيضًا وسيلة لاختباره في المواقف العصيبة. بالإضافة إلى ذلك، أردت معرفة هل في إمكانهم مزج صور مُركَّبة مع أخرى حقيقية، وقد رأيتِ ذلك بالفعل.

هذه المرة صرخت الرقيبة أواتيس:

هذا ما أقوله لك! كل شيء بالنسبة إليك لعبة أو مزحة، ولا أريد لهذا أن يتكرر. إن كان لا بدَّ لي من إرسال فيديو بما حدث، فلا أريدهم أن يسلخوني بالأسئلة ويضطروني إلى توضيح أن لديَّ عريفًا متخصصًا في التفاهات، إنها المرة الأخيرة! أفهمت؟

- نعم يا رئيستي، فهمت.

تأمَّلت الرقيبة أواتيس العريف نورث، وتساءلت إن كان من الحكمة الإبقاء عليه في منصبه. إنها في حاجة إليه لتنقيح التقارير التي سترسلها بعد أسبوع إلى القيادة المركزية للـ(DAW)، لكنها على استعدادٍ لإقصائه إذا استمر في إثارة المشكلات. قالت له:

- أتمنى ذلك.

***

19

"جيـد!!! كانـت تجربـة اليـوم الفائـت موفقـة. يعتـذر تشـاندرا عـن إطـلاق النـار عليـك ولكنـه علِـمَ أن في وسـعك فعلهـا. أترغـب في تجربـة متتابعـة لـن تسـتغرق وقتًـا طويـلًا؟ الخميـس، السـاعة 23.00 بتوقيتـك".

تذهـب باتريشيـا لزيـارة جدتهـا، التـي تعيـش وحدها في شـارع في وسـط المدينـة بالقـرب مـن حـي (جويـا)، يومـين في الأسـبوع. تحـكي لي بالتفصيـل عـما تفعلـه معهـا في تلـك الأوقـات، وتتمتـع بالقـدرة عـلى التحـدث عـن عائلتهـا بشـكلٍ طبيعـي. لديهـا شـقيقان وهـي الأخـت الصغـرى. عندمـا تبـدأ في محادثتـي عـن أبويهـا وأجدادهـا وأعمامهـا، دائمًـا مـا أرغـب في تغيـير الموضـوع بأقـصى سرعـة، بـل وأبـدأ في طـرح سـؤالٍ لا علاقـة لـه بالموضـوع، مثـل مـا هـي أول رحلـة طويلـة تتذكرينهـا؟ أو هـل تسـلقتِ الجبـال مـن قبـل؟ لا بـدَّ أننـي أبـدو لهـا سـخيفًا، لكننـي لا أريـد أي التـزام متبـادل: وجـوب التحـدث عـن عائلتـي.

تعرف عني أقل القليل، أنني أعيش مع أمي، أن أبي يعيش بالجوار، وأن أختي ماتت. ليس الأمر أنها تطرح أسئلة فضولية أو شيئًا من هذا القبيل، لكن لا مفرَّ أحيانًا من التطرق إلى الموضوع. البارحة، في أثناء عودتنا من المدرسة سألتني:

- وكيف تتعامل أمك مع موت أختك؟

- لكِ أن تتخيلي.

هكذا أجبتها، وغيَّرت الموضوع.

لا أملك أدنى فكرة عما تشعر به أمي حيال هذا الأمر، لم أسألها قطُّ. وبالمثل لا أعرف رأيها في أبي، ولا رأيها فيَّ، فأمي غريبة. يمكنني التحدث عن جداولها، عن وجباتها، عن صديقاتها، عن القرية التي ولدت فيها، عن كيف تزيِّن غرفتها وعن نقاط ضعفها. أستطيع تخيُّل مخاوفها، ولا سيما رعبها من فقداني. لكن منذ أن ماتت أختي، لم نعُد لا أنا ولا أبواي للتحدث عما جرى، في حين أن هذا الأمر قد يكون أهم ما في حياتنا، أو على الأقل أكثرها ألمًا.

بمَ تشعر أمي حيال موت أختي؟

بمَ تشعر حيال هروب أبي؟ وكونه يعيش مع امرأة أخرى؟ وأنه أخيرًا أقلع عن الشرب؟

بمَ تشعر حينما تفكر في أنني أكبر؟ وحين تتخيل أنني سأترك البيت يومًا ما؟

قد يعيش المرء سنواتٍ مع شخص يحبه ولا يعرف شيئًا عنه، أقصد شيئًا عميقًا.

قلت سابقًا إنني أذهب إلى المكتبة من وقتٍ إلى آخر. تذكرت فجأة أن اليوم هو الموعد النهائي لإرجاع كتب ساكو. يمكنني أخذ ثلاثة كتب في كل مرة، وأحاول أن تكون لنفس المؤلف أو على الأقل عن نفس الموضوع، لكنها دائمًا روايات مصورة و(كوميكس)، لأنني

لا تستهويني على الإطلاق الكتب التي تحل كل شيء بحروف والمزيد من الحروف. أخذت ثلاثة (كوميكس) أخرى لكتّابٍ يابانيين، لكنها ليست من (المانجا) التي، باستثناء (أكيرا)، تبدو لي جميعًا متشابهة.

بينما أسلم الكتب، لا بدَّ أن شيئًا ما ظهر على شاشة الكمبيوتر لأن الفتى الذي يختمها قال لي:

- تريد مديرة المكتبة أن تسألك عن أمرٍ ما؛ طلبَت أن تمرَّ عليها حين يتسنى لك الوقت.

أردت أن أعرف فسألته:

- لماذا؟

- لا أعرف.

لما رأيت أنه سلمني الكتب دون مشكلة، أجبته:

- لا يمكنني اليوم؛ أنا في عجلة من أمري، ربما في يوم آخر.

- حسنًا، كما تريد.

صحيح أنني كنت في عجلة من أمري، إنه يوم الخميس. رغبت في العودة إلى المنزل في أقرب وقت ممكن، وأداء الواجبات والاستعداد للقاء الليلي، لكن الأهم أنني لم أرد أن تحاول تلك المرأة أن تأكل رأسي بأي شيء، على الرغم من أن الأمر حيَّرني، أقرُّ بذلك.

حدث شيء غريب بخصوص المال. كنت قد حسبت بالفعل أنهم ضاعفوا المبلغ في المهمة قبل الأخيرة ثلاث مرات، ولا بد أن هذا يتزامن مع الوصول إلى المستوى +A. الحقيقة أنه عندما قيل لي في البداية إنهم سيدفعون إليَّ 100 يورو نظير الفوز، بدا لي ذلك كهدية من السماء لم أتوقعها، ولا يزال يبدو لي مبلغًا أكبر من اللازم مقارنة بما تجنيه أمي. لكنني منذ المعركة الأخيرة مع تشاندرا لا أستطيع التوقف عن التفكير في إن كانوا سيعطونني 100 أو 300 يورو، وهل

سيصبح المبلغ 300 من الآن فصاعدًا في كل مرة أنافس فيها. لا بد أن المال اختُرِع لتقييدنا، لا عجب أن الناس لا يريدون التخلي عن بعض الوظائف إذا كانوا يكسبون مبلغًا معينًا. عندما عرضت عليَّ كاتارينا المهمة الجديدة، شعرت بأنني أُصبت بشيء أشبه بالجشع: هل سيدفعون لي 300...؟ إذا وصلت إلى المستوى A++ يومًا ما، فهل سيكون 500 مثلًا...؟

بينما أتناول العشاء مع أمي، في وجود جميع المكونات المعتادة (شكواها من العمل، ورغبتها في أن أتناول الكثير من الطعام لأنني في مرحلة النمو ولديَّ مذاكرة كثيرة، وأجوبتي المراوغة عندما تسأل عن كيفية سير الأمور في المدرسة...)، لم أكف عن التفكير فيما تشعر به نحو موضوعات حياتها المؤلمة، وتساءلت أيضًا فيما ستفكر حيال ما أنوي فعله بخصوص أبي، وهو ما لم أذكر لها شيئًا عنه بالطبع. كانت أختي تُدعى لوثيًا، كم مرة نطقنا اسمها في هذا البيت بعد وفاتها؟ مرة، اثنتين، ليس أكثر من ذلك بكثيرٍ.

على الرغم من أنني أيضًا أشعر بالذنب -أعترف بذلك، فالأمر ليس قاصرًا على أبويَّ- فأنا أيضًا تجنَّبت التحدث عنها والسؤال عنها، خوفًا من إطلاق العنان لآلام أكثر من التي يحملها كل منهما، وبسبب ألمي الخاص.

أنا محتال أيضًا، بشأن باتريشيا على سبيل المثال. أسكت قدر المستطاع، أتجنب ما يؤلمني.

في العاشرة، بعدما ساعدت أمي في ملء غسالة الصحون، وإزالة مفرش المائدة وكل ذلك، ذهبت إلى غرفتي. شعرتُ بالتعب وانعدام الرغبة في التنافس تلك الليلة، إلى جانب ذلك، شلَّني ما حدث في آخر يوم مع تشاندرا. أعليَّ مهاجمته فور ملاقاته؟ ما الألاعيب التي سيستخدمها هذه المرة؟

طال عليَّ وقت الانتظار.

أخيرًا، في الحادية عشرة إلا خمس دقائق، دخلت (المصنع). في هذه المرة لم أضطر إلى الانتظار إلى حين إدخال كلمة مروري، لوجودي في نفس الطائرة التي استخدمتها في اليوم السابق. كانت خزانات الوقود ممتلئة إلى أقصى حدٍّ، لكن الطائرة ليست مسلَّحة. صنعتُ قائمة بالمزايا والعيوب: أقل وزن ممكن، أقصى قدرة على المناورة، وقدرة منعدمة على الهجوم ... تحتم عليَّ الاعتماد على مهارتي فقط لتجنُّب أي خطر، من أي نوع كان.

استغرقني الأمر بعض الوقت للتحقق مما رأيت. عبْرَ المنظار ظهرت الأرض على بُعد بضعة كيلومترات محاطة بإطارٍ أسود بينما تتحرك. نظرت إلى مقياس الارتفاع: 5400 قدم، على الرغم من توقف المحركات. صدرت من السماعات ضوضاء المراوح المتحركة، ما هذا...؟ وفجأةً أدركت الأمر: أنا على متن المروحية التي أقلتني آخر مرة. هل يتوقعون مني أن أنطلق من هناك؟ لأذهب إلى أين ولأي غرض؟

وعلى حين غِرة، سمعت صوت "كلاك" وتمايلت الطائرة. اختفى الإطار الأسود، واحتلَّت صورة الأرض الشاشة بأكملها، وأخذَت تدور بجنون. أدركت في لمح البصر أنهم قد فكُّوا رباطًا ما، وأنني أسقط سقوطًا حرًّا، مثل الحجر.

أحب حصص الفيزياء. قدَّرت أنه من هذا الارتفاع سيستغرق الأمر نحو ثماني عشرة ثانية لأصل إلى الأرض، وهذا هو الحد الأقصى من الوقت المتاح للتحكم في الطائرة. أدرت المحركات، وناورت محاولًا البحث عن اللون الأزرق في المنظار. كنت أعرف ما يجب عليَّ فعله وبأي تسلسل، وهو أمر لا يمكن تفسيره بسهولة لأنه ينقسم إلى عشرات الحركات الدقيقة. وبينما أنا مستغرق فيما أفعل، لم أتوقف عن التفكير في أن تشاندرا يمكنه مهاجمتي. ظلَّت الأرقام تنخفض بسرعة على مقياس الارتفاع، وأخيرًا، عندما أشار إلى بُعد 800 قدم،

بـدا أن الطائـرة اسـتقرَّت وتسـارعت ورسـمت قوسًـا مـن الأرض نحـو السـماء. بعـد تلـك الثـواني السـت عـشرة، كانـت غـددي العرقيـة تعمـل بكامـل طاقتهـا والأدرينالـين يجـري في جسـدي.

أخـيرًا، صـارت الطائـرة تحـت تـصرفي، وجهـزت نفـسي لرحلـة روتينيـة نوعًـا مـا، متخيـلًا أنهـم لـن يتأخـروا في إخبـاري بمـكان الهبـوط. وبينـما أراقـب أجهـزة التحكـم، حاولـت أن أتبـيَّن إن كانـت هنـاك طائـرة معاديـة.

فوجئـت بانطفـاء أجهـزة التحكـم، وشـعرت بنفـس الـدوار الـذي يمكنـك استشـعاره عندمـا تكـون عـلى ارتفـاعٍ معـينٍ وتختفـي الأرضيـة مـن تحـت قدميـك. حاولـت تجـاوز ذلـك، وتمكَّنـتُ مـن ترجمـة الرسـالة المكتوبـة بأحـرف كبـيرة عـلى الشاشـة:

"Critical time. Try again!"

عـادت الشاشـة إلى السـواد التـام، وبعدهـا بثـوانٍ رجعـت إلى مـكان البدايـة نفسـه، عـلى مـتن المروحيـة.

في مناسـبتين أخريـين وضعـوني عـلى المنحـدر. سـقطت في الفـراغ ثـلاث مـرات، وأخـذ الارتفـاع يتزايـد حتـى وصـل إلى 900 قـدم في المـرة الأخـيرة. عندمـا أنهيـت الاختبـارات شـعرت بأننـي جـزء مـن آلـة، قطعة من تـرس غير مفهـوم. مـا أهميـة اسـتعادة طائـرة عـلى ارتفـاع 300 أو 900 قـدم في لعبـة مسـتقبلية، مـا لم يكـن اللاعـب قـادرًا عـلى معرفـة التسلسـل المعقـد الـذي يسـمح لـه بالسـيطرة؟ ألم يكـن كافيًـا تعديـل مقيـاس الارتفـاع الافـتراضي؟ إلى أي مـدى سـتكون الألعـاب، في المسـتقبل، واقعيـةً كالواقـع نفسـه؟

أنهيـت اللعـب منهـكًا، أطفـأت الكمبيوتـر وارتميـت بملابـسي فـوق السريـر ونمـت.

***

اجتمعت (الجرجة) لمناقشة مقترح نال الموافقة مقدمًا: توزيع 3000 دولار على عائلات المقتولين الأربعة قبل أيام، أما باقي الوقت -الذي اعترف فيه شخص ما بأن الرئيس على حقٍّ، وأن الهجوم على تلك الطائرة كان عملًا طائشًا- فقد ضاع في الأسف على الوضع الذي تمر به القرية. فمع تدمير الطرق، سيتعفن المحصول في المستودعات، وتنعدم تجارة الحيوانات، وبالكاد ستصل بضائع لإمداد محلات القرية التي يتقلص عددها أكثر فأكثر.

قال أحد الشيوخ:

- بقي حلٌّ، وهو العودة إلى المحاصيل التي زرعناها قبل ست سنوات؛ تذكروا أن شعبنا كان يعيش في رخاء طوال عدة المواسم...

قاطعه رئيس (الجرجة) بغضبٍ:

- خيَّام! تحدثنا في هذا من قبل! لن نعود لزراعة حقولنا بالخشخاش؛ الشريعة الإسلامية تحرِّمه، وزهور الشيطان تلك لا تجلب سوى الشقاء.

ردَّ الشيخ رؤوب بهدوءٍ:

- يا حزرات، صحيح أن تعاطي الأفيون أحد الحدود، أما استخدامه الطبي فلا. يقول الإجماع إن...

- لا يهمني الإجماع!

ثم تبع بينما يهم بالوقوف:

- هل نسيتم سريعًا ما حدث عندما أتت (طالبان) إلى هنا وأحرقت المحاصيل وأخذت عائلة (سوفيك)؟ هل تيبَّست

ذاكرتكم واستُهلكت كالشمامة التي تعرضت للشمس؟ لن يُزرع أفيون في هذه القرية ما دام هناك دم يسري في عروقي!

قال رؤوب محاولًا التسوية:

- اجلس يا حزرات، كلنا نتذكر ما حدث، لكنها أزمنة أخرى، من فضلك اجلس...
- لن أفعل! ولن أترأس (الجرجة) إن كانت في نيتكم حتى مناقشة هذا الأمر.

ومع ذلك، جلس حزرات بانا‌راس مرة أخرى. منذ أسبوع بات ألم ساقه لا يحتمل.

كان رؤوب من استأنف الكلام من جديدٍ:

- أخبرتكم يا إخوتي أن الإجماع يُبيح استخدام القلفونة[1] للأغراض الطبية، وبالتالي فإنه يُقر أيضًا زراعة مصادره. ليس هناك حد، ليس هناك إثم في مُجرد زراعة حقل للخشخاش، فالأمر يُشبه صهر الحديد، رغم أن هذا الحديد يمكن أن ينتهي به الأمر في يدٍ مُجرِمة.

اتفق الحاضرون مع هذه الحُجَّة.

تابع رؤوب:

- كلنا نعرف أن عائلة (سوفيك) كانت تتاجر مع المهربين، ومع ذلك، يخبرني ابني بوجود تجار في القرية التي يقيم فيها، يشترون القلفونة بشكلٍ قانوني ويحوِّلونها إلى أدوية.

صاح حزرات:

- قُلها بصراحة! قُلها بصراحة وبصوتٍ عالٍ إنهم في قرية ابنك يبيعون الأفيون للأجانب!

---

(1) القلفونة أو الراتنج: إفراز عضوي يحوي المواد الهيدروكربونية من النبات. (المترجمان)

جادله رؤوب:

- أجانب أم لا، القصد أنه ليس حدًّا، والكيلو من القلفونة أغلى ألفَي مرة من كيلو الشمام الذي يتعفن في بيوتنا.

ردَّ عليه حزرات بانفعالٍ:

- من يؤكد أمرًا كهذا؟ أيعرف أي منكم الطريق الذي تسلكه إحدى هذه الزهور حتى؟ منذ مجيء الأجانب إلى هنا، تضاعفت زراعة الخشخاش عشر مرات، وهو ما جلب الفساد والموت إلى شوارعنا. ألا تعرفون أن تجارة الأفيون هذه قد أفسدت ودمرت حكومتنا؟ ألم تروا شبابنا يموتون في الساحات والشوارع، بدم مليء بذاك السخام؟ أنتم، يا من تتباهى رؤوسكم بشيبها، هل رأيتم أيًّا من ذلك قبل وصول الأجانب؟

اتفق الحاضرون مع حزرات.

بدا أن الاجتماع قد انتهى، على الرغم من أن خيَّام عاود الجدال:

- لكننا لا يمكن أن نسمح بموت أطفالنا جوعًا؛ نحن حكومة هذه القرية وواجبنا أن...

قام حزرات باناراس مستندًا إلى عصاه دون أن ينبس ببنت شفة.

صمت الجميع حتى غادر.

***

20

ما أعرفه عن أبي منذ مغادرته المنزل تَسعه بطاقة بريدية، بل إنني لست متأكدًا حتى إن كان ما أعرفه صحيحًا. عندما انفصلا، ذهبت أمي إلى شركة كان يزعم أنه عمل بها عشر سنوات، لم يعرفوه، لم يذهب قطُّ إلى هناك.

رغم كل شيء، لطالما أحبَّنا واعتنى بنا بطريقته. كانت لديه طريقة غريبة لمواجهة الواقع. في طفولتي، اعتاد أن يسليني وقتما يوقظني من السرير قائلًا: "سترى كمية الثلج المتساقط"، لا داعي لذكر أنه لم يكن هناك أي أثر للثلج. عندما كبرت قليلًا أغراني بألعاب الورق، وبعدها بلوحات (الترمبلوي) العلمية[1]. كان يضحك بكل ذلك، يستمتع كطفلٍ. أعتقد أنه لم يستطع التعاطي مع العالم الواقعي،

(1) الترمبلوي: كلمة فرنسية تعني حرفيًّا "خداع البصر"، وهي تقنية للرسم الفني، استُعملت في اليونان القديمة وفي روما، وتكمن في رسم خلفيَّة على حائط لتبدو كأنها حقيقية. (المترجمان)

خاصةً مع موت لوثيًا، وصار الشرب وسيلة لإخفاء الأمر. لا بد أن العالم يبدو مختلفًا من خلال الزجاجة.

كنت أعرف بالتقريب أين يعيش. افترضت أنه لا يعمل أيام السبت، وبحثتُ عنه يوم السبت سائلًا هنا وهناك.

عندما اتصلتُ به عبر هاتف البوابة سألني متشككًا: "سِباستيان؟ أيُّ سِباستيان؟". دعاني إلى الصعود، رغم أنني فضَّلت الشارع.

مررنا سريعًا على الأسئلة والعبارات المهذبة: كيف حالك، كم تبدو لي طويلًا، هل حدث شيء ما، وأشياء من هذا القبيل. طلبت منه أن نذهب إلى الحديقة. كان متوترًا إلى درجة أنه لم يفعل شيئًا سوى وضع يديه في جيبيه، كأنه يبحث يائسًا عن أي شيء لتشتيتي.

تخيلت الكثير من الأسئلة لطرحها، لكن بينما نسير بدا لي كل شيء مُربكًا. أكان لديَّ الحق في كسر القوقعة التي احتمى بها في تلك السنوات؟ أكان ضروريًا إضافة المزيد من المعاناة أو القلق إلى حياته، الآن بعدما بدا أنه أعاد إليها السلام؟ رأيته أكثر عجزًا من المرة الأخيرة، أكثر انحناءً، وربما أكثر سأمًا من الحياة.

جلسنا على المقعد الأول عند مدخل الحديقة، وبدأتُ الحديث:

- لم نرَ بعضنا منذ فترة طويلة، وخَطَر لي أن آتي لأتحدث إليك...

وفجأةً، لا أعرف كيف، بدأت التحدث عن شيء لم أكن أتوقعه:

- أتعرف أنني قريبًا في المدرسة سيتعيَّن عليَّ اختيار ما سأدرسه؛ فكرت في التحدث معك لأعرف رأيك...

لفترة من الوقت تحدثت وتحدثت عن مزايا دراسة هذا أو ذاك، مبررًا ذلك بالصعوبات والبدائل والفترات الزمنية والرغبات وغيرها من الأشياء. للحظة شعرت أنني في لعبة أشتِّت خصمي كي أكتسب ثقته، لكنني سرعان ما استبعدت هذه الصورة الوقحة بعض الشيء.

وددتُ حقًّا أن يعرف أبي عن شكوكي! وبينما أتحدث رأيت أنه توقف عن العبث في جيبيه من أجل الإصغاء إليَّ.

عندما توقفت تحدث هو، وبالكاد أتذكر ما أجابني به. بالتأكيد أشياء مبتذلة، فما كنت لأقوله في تلك الحالات هو أن أفكر جيدًا في الأمر، أنه لا يزال هناك وقت، شيء مماثل. ثم سألني:

- كيف حال ماما؟

- بخيرٍ، أنت تعرفها، تعاني دائمًا، لكن منذ مدة قريبة ذهبت إلى القرية وعادت سعيدة... وشرحت له بالتفصيل ما أحضرته من هناك، لإجراء محادثة. كان يبتسم أحيانًا وفي النهاية قال لي:

- أوف، القرية؛ أنت لا تعرف مقدار القيل والقال والثرثرة الفارغة المنتشرة هناك؛ لحسن الحظ أننا لم نبق فيها؛ لقد كبرتَ وأحسنتَ ببقائك بعيدًا يا بني، لأن الحسد...

تركته يتكلم.

عندما سكت سألته:

- وأنت كيف حالك، ألديك وظيفة؟

- آه، أنت تعرف أنها أوقات سيئة لمن هم في مثل سني؛ تأتي مصلحة هنا أو هناك، لكننا ندبر حياتنا. ماريًّا لويسا تملك وظيفة ثابتة في البلدية وأطفالها لم يعودوا يعيشون معنا، لذلك ليس هناك الكثير من النفقات ويمكننا تدبير الأمور.

إنها المرة الأولى التي أسمع فيها اسم شريكة حياته! المرة الأولى التي أعرف فيها شيئًا عن حياتهما!

قلت له:

- اسمع يا بابا، إن كانت لديك مشكلات في أي وقت، أود منك أن تخبرني، لديَّ عمل صغير وبعض المال المُدَّخَر الذي لا حاجة لي إليه مطلقًا؛ أنت تعرف أن نفقات المنزل ليست كثيرة أيضًا.
- شكرًا لك يا بني، لكنه حقًّا لن يكون ضروريًّا.

وضع يده على ركبتي ثم أضاف:

- احتفظ به لأمك.

سألته دون أن أفكر طويلًا:

- لماذا لا تكلمها يومًا ما؟
- لا أدري... لا أعتقد أنها تود الحديث معي؛ إضافةً إلى أنني لا أعرف ماذا أقول لها في الحقيقة.
- أمضيتم وقتًا في غاية السوء مع لوثيًا، أليس كذلك؟

اندهشت من جريان الكلمات على شفتيَّ. رفع أبي بصره، وظللنا ننظر إلى بعضنا لثوانٍ، متفاجئَين. أعترف أنني مَن لم يستطع تحمُّل نظرته. سمعته يقول وأنا أثبت عينيَّ على مقدمة حذائي:

- نعم... الأمر ليس منطقيًّا... حدث بسرعة كبيرة... ظننت دائمًا أن الأطباء سينقذونها. حتى عندما أخبرونا بأنها ماتت لم أقتنع بالأمر، واعتقدت دائمًا أنهم سيعيدونها إلينا، أنها يومًا ما سترجع إلى البيت، إلى غرفتها. كان الأمر أسوأ بالنسبة إلى أمك، أعتقد لأنه ظل داخلها. بعد ذلك، لفترة طويلة، لامتني لأنني ارتكبت ذنب اصطحابها إلى ذلك المستشفى، وأنه تحتم علينا البحث عن أطباء آخرين، ولذلك...

سكتْ. رفعتُ ذراعي ووضعتها على كتفيه، وبقينا هكذا فترة. ظل بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون بالكرة يحدقون إلينا، وشعرت بخجلٍ غير مفهوم. لم أكن مستعدًّا لبكاء أبي، وامتننت لأنه لم يفعل ذلك. لم أكن مستعدًّا لفعلها أنا أيضًا. رافقته إلى بيته وتواعدنا على اللقاء مرة أخرى يومًا ما.

سألني:

- أتحب أن تصعد؟

- مرةً أخرى، لديَّ أشياء يجب أن أفعلها.

عدت إلى المنزل دون عجلة، مسترجعًا ما حدث. لم يجرِ الأمر كما اعتقدت، لكنه كان أكثر بكثيرٍ مما تصورت. قلت لنفسي إن التحدث إلى أمي سيكون أصعب، رغم ظني أيضًا بأن هذا على الأرجح ليس صحيحًا؛ ربما نحن في حاجة إلى التحدث، وشعرت بالذنب بسبب دراستي وألعاب الڤيديو، بسبب ذلك التوتر المستمر لوجودي دائمًا بمنأى عن الحياة الواقعية.

أكلت مع أمي. في لحظةٍ ما أوشكت أن أطرح عليها سؤالًا جوهريًّا، عن شيء ربما يُزيح الصمام الذي يعيق التواصل بيننا، لكنني اكتفيت بما حصلت عليه ذلك اليوم. حاولت أن أكون لطيفًا وحكيت لها فقط أنني تعرَّفت إلى فتاة أظن أنها تعجبني، واحدة تدعي باتريشيا، وسألقاها بعد ظهر اليوم.

أعتقد أن الأمر أسعدها. لم تأتِ على ذكر (تلك)، لكن أحيانًا تكون أمي شفافة؛ تعتقد أن باتريشيا ستبعدني عن "رفقاء السوء".

نعم، طلبت منها الخروج معي في موعد غرامي، وسألتها هل ستود -بعد ساعة- أن نلتقي بأندرِس ومارتا وإيلينا وأبِل، فهي تعرفهم شكلًا، ولا أعلم إن كانت متحمسة لهذه المسألة، لكنها لم تعترض.

خلال الوقت الذي قضيناه معًا تحدثنا عن أشياء من هنا وهناك، وغمرني شعور بأنني جبل جليدي، أُظهِر جانبي الأكثر اجتماعية، بينما ظل كل شيء آخر (وظيفتي، أبواي، لوثيًا، خططي، شغفي...) مختفيًا تحت السطح.

كأنني مذنب بشيء ما.

قضينا نحن الستة وقتًا طيبًا.

***

ID: 80278720

To: Headquarters Division Advanced War (DAW)[1], Washington, DC

Origin: F. W. Oates, E-9 DAW / M.J. North, E-4 DAW, Siracusa, NY

Title: About the use of civilians in military missions

CLASSIFIED

Report one/#3: New staff for new missions

في عشر سنوات، انتقلت قواتنا الجوية من حيازة 50 فقط إلى أكثر من 7000 (Unmanned Aereal Vehicle)[2]، المعروفة باسم (UAV) أو (الدرونز)، وهي تُمثل وفقًا لأجهزتنا الاستخباراتية 70٪ من إجمالي هذا النوع من الأجهزة على الكوكب.

تعتمد القوات الجوية على أكثر من 1300 طيَّار للـ(درونز) موزعين على 13 قاعدة أمريكية، وثمة حاجة ماسة إلى 300 آخرين؛ إذ تشير الحسابات إلى أنه في غضون عامين ستتضاعف هذه الحاجة. في الوقت الحالي، يتجاوز تدريب طيَّاري الـ(UAV) تدريبَ طيَّاري الطائرات المقاتلة التقليدية. (انظر في الملحقات، مقارنة تكاليف التدريب لنوعَي الطيارين. الملحق 1).

يراقب بيتر أ. قرية متمردة لعدة أيام. من مسافة 13200 كيلومتر، يتابع حركة المركبات وإنزال المنتجات والأماكن التي يُحتمَل أن تكون مستودعات للأسلحة. يرى سكانها يستيقظون في الصباح ويذهبون إلى العمل، وفي نهاية اليوم يخلدون إلى النوم. يراقب الأمهات مع

(1) يتضح هنا معنى اختصار (DAW) وهو (قسم الحرب المتطورة). (المترجمان)

(2) ترجمتُها (طائرة بلا طيار) أو (طائرة مسيرَّة). (المترجمان)

الأطفال، والآباء مع الأمهات، والأطفال الذين يلعبون كرة القدم. عندما يتأكد من أن المشتبه به يمارس أنشطة إجرامية، يتلقَّى الأمر بإطلاق النار، ويفعلها عندما يكون الهدف وحده، دون تعريض حياة النساء والأطفال للخطر. يبلغ نجاح هذه العمليات نحو 80٪، على الرغم من حدوث أضرار جانبية في بعض الأحيان.

يتلقَّى أندرو س. التكليف بالمهمات الحربية قبل موعدها بوقتٍ محدد. يُقلع بطائرة أو يتولى قيادة إحدى (الدرونز) الموجودة في الجو. من مسافة آلاف الكيلومترات، يتعرَّف إلى التضاريس، ويتفادى أنظمة التعقب إن وُجدت، ويحدد الهدف الذي عادةً ما يكون متحركًا، ويدمر هدفًا واحدًا أو عدة أهداف، ويعود إلى القاعدة أو يهبط بالطائرة على مسار الهبوط التلقائي. تصل نسبة نجاح هذه العمليات من قِبل طيار مؤهَّل إلى نحو 90٪، مع وجود أضرار جانبية لا ينبغي أخذها في الاعتبار.

يختلف الملف الشخصي لهؤلاء الطيارين. أما الأول فيتطلَّب الصبر والمعرفة بالتضاريس ونفاذ بصيرة خاص لتحليل التفاعلات البشرية. وأما الثاني فيتطلَّب القدرة على رد الفعل والمعرفة العميقة بالجهاز الذي سيطير به، بمدى قدرته على المناورة والحركة الاستباقية لتفادي المفاجآت.

في كلا الملفَّين، يختلف التكوين والسمات البدنية عن تلك الخاصة بالطيارين التقليديين.

بيتر أ. مهندس معماري؛ يقدم خدماته من داخل سلاح القوات الجوية، من التاسعة صباحًا إلى الثالثة مساءً؛ في الوقت المتبقي، ينفذ بصفة مستقلة مشروعات تتعلق بمهنته. أندرو س. ممرض ويخصص بين الحين والآخر ساعاتٍ من وقته لأداء مهام معينة. يحصل الأول على مكافأة شهرية ثابتة مماثلة لتلك التي يحصل عليها موظف

مؤهَّل، ويحصل الثاني على مكافأة تتوقف على الوقت المخصَّص وصعوبة المهمة.

كما يتبين من الملحق 2، فإن هذه التكاليف أقل بكثيرٍ مما يتطلبها نقل سرب استطلاع سريع التصرف أو طائرة مقاتلة من قاعدة قريبة من الهدف. المخاطر البشرية لقواتنا منعدمة.

على الرغم من مكافآتهما المالية المُموَّلة من القوات الجوية، فإن بيتر أ. وأندرو س. مدنيَّان بالأساس. لم يتلقَّ أي منهما تدريبًا عسكريًّا، ولا وطأت قدمه ثكنة عسكرية. كلاهما خبير في ألعاب الفيديو بمعنًى واسعٍ.

على الرغم من غرابة الأمر، يؤدي أندرو س. عمله من المنزل.

***

21

كانت لوثيًا تكبرني بثلاث سنوات تقريبًا. حدث لها الأمر وهي في الثانية عشرة. أحيانًا أشعر بالذنب لعدم احتفاظي بذكريات أكثر لها ومنذ زمن، في غياب أمي عن البيت، وأنا أدخل إلى غرفتها وأرى صورها على الطاولة والأرفف: صورتين أو ثلاثة وهي رضيعة، واحدة أخرى وهي أكبر قليلًا، في حمام سباحة بالمايوه؛ اثنتين أو ثلاثة من المناولة الأولى لها وهي ترتدي فستانًا أبيض، وفي إحداها تمسك بيدي؛ واحدة أخرى في عيد ميلاد، وهي تطفئ إحدى عشرة شمعة... حفظتها عن ظهر قلب. تحتفظ أمي هناك بألبوم صور للعائلة، لكنني لم أجرؤ على البحث عنه في غرفتها.

ليس من السهل أن تتحوَّل إلى الابن البكر، أولًا، ثم إلى الطفل الوحيد للعائلة. اعترف لي أبي بشيء صادم في ذلك اليوم، وهو أن أمي ألقت اللوم عليه بسبب ما حدث. نعم، هكذا هي أمي، لكني أتخيل أن للأمر علاقة بالجنون الذي يجب على المرء كبحه لعجزه

عن قبول ما حدث. ليس لديَّ أدنى فكرة أكان أبي يشرب قبلها أم لا، لكني أعتقد أن حواسي أُرهِفت منذ تلك اللحظة. لم يقتصر الأمر على وفاة أختي وقدرتي على استشعار غيابها، بل اعتلته نقاشات أبويَّ وملاماتهما وبكاء أمي في منتصف الليل، وخطى الأقدام في الصالون في ساعات الصباح الأولى، والباب الذي يفتحه أبي أحيانًا في الثانية، وقتما يظنان أنني نائم.

قبلها بفترة قصيرة، كما قلت، حصلت على حاسوبي. وبما أن أبويَّ لم يمتلكا أدنى فكرة عن الغرض منه، وربطاه بحصص الكتابة على الآلة الكاتبة التي أتعلمها، وضعته في غرفتي دون نقاش. لم تهتم لوثيًا في ذلك الوقت بأي شيء يتعلق بالكمبيوتر والألعاب؛ كانت قد بدأت مرحلة الإعجاب بالأولاد في صفِّها واقتناء شرائط المطربين العصريين، لذا أصبح جهازي هو ملاذي في ليالٍ كثيرة. لطالما تناولت العشاء ثم، إزاء الصمت المُخيِّم على جلسات ما بعد الطعام، ذهبت إلى غرفتي. لم أكن أشغِّل التلفاز حتى، أو ربما فعلتها مرات قليلة.

كم من الساعات قضيتها في اللعب واضعًا السماعات! أعتقد أنه لولا الكمبيوتر لجُننت؛ أعني جنونًا أكثر مما أنا عليه؛ كان وسيلة للهرب.

بعدها، عندما رحل أبي، بات كل شيء أبسط. لا أعني أن الأمر لم يؤلمني، وأنني لم أقلق بشأن ما سيحدث لنا. يُعتقَد أحيانًا أن الأطفال لا يدرون بأي شيء، لكن هذا ليس صحيحًا. أتذكر تساؤلي عن مصدر المال الذي سنعيش منه، وهل سيقطعون عنا الكهرباء، كما قال بعض الجيران في السوق أحيانًا، في هذا الحي حيث يصعب بلوغ آخر الشهر؛ كنت أشعر بالذنب حين ينقطع حذائي، أو حين تصدر الكتب في أول الفصل الدراسي، أو إذا ما رأيت أن البناطيل الطويلة باتت تصل إلى أعلى كاحلي، وحتى بسبب تناول الوجبات الخفيفة. أصبحت

صبيًّا شديد المسؤولية ودائم القلق بشأن أمي، وهو عبءٌ لا يجب أن يتحمَّله أي صبي في سنِّي؛ إذا أنجبتُ أطفالًا يومًا ما، وهو ما لا أعتقده، فلا أريدهم أن يمرُّوا بنفس ما مررت به.

على الرغم من كل شيء، قلت إنه عندما رحل أبي هدأت كل الأمور. لم تعد أمي تشعر بألمٍ أكثر مما لديها، وبدأت بعض الصديقات في الظهور بالمنزل، في زياراتٍ امتننت لها لأنها حملت عن عاتقي واجب الوجود الدائم معها؛ وفي مرات قليلة كانت أمي تخرج من المنزل، الأمر الذي جعلني أنعم بالهدوء، لكنني أعترف بأنه في تلك الأيام خشيت زواجها من رجلٍ آخر، وشعرت بالكراهية تجاه أبي، تجاه "الرجال"...

أظن أن الأمور التي عاشها المرء تترك فيه أثرًا أبديًّا. تعجبني باتريثيا نوعًا ما، وما أشعر به في أثناء وجودي معها هو أنني قد أخيِّب أملها. عندما يتحدث أصدقائي عن "البنات"، ويشيرون إلى ما يفعلون أو ما سيفعلون معهن ومثل هذه الأشياء، أتصور أن لهذا علاقة بما عاشوه مع أمهاتهم، مع أخَواتهم، هذا ما أظنه... ينعكس عبء أمي على باتريثيا، وهو ما يعني أنني أحمق بعض الشيء.

لكنني عند رؤية "الرجال" في حانات الحي، أو في شرفاتهم، أو جالسين على المقاعد يدخنون دون أن يفعلوا شيئًا، أو يصيحون بعباراتٍ بذيئة نحو فتاة ترتدي تنورة قصيرة أو سروالًا قصيرًا... كنت أرى وجه أبي، وأشعر بالعار والغضب. أردت أن أكبر! أن أغادر هذا الحي! أن أترك ورائي ظلال أبي وأمي بل وأختي!

في بعض اللحظات، ألقيتُ باللوم حتى على المسكينة لوثيًّا في ذهني لأنها تركتني وحيدًا في هذه المعجنة.

بل وصل الأمر إلى أن أحسدها.

دفعوا إليَّ 300 يورو نظير الجولة القاسية التي جرت قبل بضعة أيام، وهي المهمة الصعبة، لكنهم دفعوا 200 مقابل الأخيرة. مبلغ كبير، لكنني أعترف بأن الدفعة الأخيرة خذلتني، هذا ما كنت أقوله عن فخ المال.

ما زالت باتريشيا تكتب لي رسائل باسم (القلب الطيب)، تكلمني أحيانًا، ونتقابل من وقت إلى آخر. ألمحت إليها بالفعل كي تبحث عن اسم أقل ابتذالًا لرسائل بريدها الإلكتروني؛ من غير الملائم أن تخرج مع شخصٍ يعرفونه باسم Assassin، على الرغم من أنني بالطبع لم أحدِّثها عن لقبي.

أوشكت على فعل ذلك أول أمس، لأننا تشاجرنا. ليس الأمر أنني سأقول لها: "توخي الحذر، لأنك تتشاجرين مع "القاتل""، أو شيء من هذا القبيل، لكنها غضبت لأنها تعاتبني لمحاولتي دائمًا دفع الحساب. منذ مدة ونحن نتناوش إذا ما دفعت ثمن تذكرتَي سينما، ولم آخذ منها ثمن تذكرتها، أو إن دعوتها إلى مشروب ما، لذا توصَّلنا إلى اتفاق: مرة أنت وأُخرى أنا، ولكن دون أن أدري عدت لكسر الدور فغضبت بحجة أنها لن تشعر بالحرية في ظل إصراري على دفع الفواتير دائمًا. أخبرتها بشيء عن أن لديَّ بعض الخميرة، ولن يضيرني الدفع، لكن ذلك ما أغضبها حقًّا. أوشكت أن أشرح لها عملي ومقدار ربحي، لكني فضَّلت عدم فعلها؛ اعتقدتُ أن ذلك لن يهدئها، بل العكس تمامًا.

راسلتني كاتارينا أيضًا. بالإضافة إلى تهنئتي وتشجيعي وكل ذلك، طلبت مني أن أتفرَّغ يوم الجمعة المقبل. أزعجني ذلك، لأنني فكرت في الخروج مع باتريشيا في ذلك اليوم، وسأضطر إلى تقديم تفسير كاذب لها. لا تُعد مئتا أو ثلاثمائة يورو أمرًا سيئًا على الإطلاق، وليس هذا وقت إهدار هذه الفرص.

تغيَّرت أمي منذ عودتها من القرية؛ صارت أكثر مرحًا. أعتقد أن ما توده من أعماقها هو العيش هناك، وفي بعض الأحيان أفكر في أنها يومًا ما، عندما تجمع من المال ما يمكِّنها من التقاعد، ستعود إلى المنزل الذي كان لأبويها، لتتنزَّه عبر الحقول وعبر النهر، مستمتعة بسكينة الإخوة وأبناء العم وأولاد الإخوة.. وحينما أفكر في ذلك يعبث بي خيالي: سأبقى وحدي في المنزل، ربما سأكون قد جمعت ما يكفي من المال للمغادرة والعيش في مكان آخر؛ بل ربما يمكنني السفر إلى الخارج للدراسة أو العمل.

ألم يحدث لكم قطُّ أن رغبتم في النظر عبر ثقب لدقيقة واحدة ورؤية مستقبلكم بعد عشرين عامًا: كيف حالكم؟ أين تعيشون؟ في رفقة مَن؟ ماذا تعملون؟ مَن أصدقاؤكم؟ كيف هي البيئة المحيطة بكم...؟

***

22

انفصلت إيلينا عن أبِل. كان الأمر متوقعَ الحدوث في الأسابيع الأخيرة. لم يرقني ذلك على الإطلاق، لكنني أعتقد أن هذا سيصبُّ في صالحه. لا أعرف ماذا أصاب الفتيات الحسناوات، لكن الأمر كأنهن يحرقن الأكسجين من حولهن. إيلينا فرعاء، "مليحة" إلى درجة أنها تبدو مكتفية بذاتها، كتماثيل الربَّات تلك التي تُعرض دون الحاجة إلى وجود تمثال لإله ذكر بجانبها.

بالنسبة إلى أبِل، أعتقد أنه وضع قدميه على أرض الواقع. وفقًا لِمَا يحكيه أندرِس فإنه محطَّم ومجروح الكبرياء، ولكنه سيتجاوز الأمر، سيكون من الجيد إن دفعه هذا إلى التركيز على ذاته بشكلٍ أكبر، وتخصيص وقت أطول لدراسته، والعودة إلى أحلامه مع الفيزياء. كان أكثر الشباب مواظبةً على حضور الحصص، لكن منذ ارتباطه بإيلينا اقتصر الأمر على المرور بالمكان، والذنب لا يقع على إيلينا في هذا الأمر بل عليه: فمنذ ارتباطهما صار أبِل يتنزَّه ممسكًا بيدها كأنه

قابض على صيدٍ ثمين. بعثتُ إليه برسالة بريدية بالمستجدات وختمتها بعناق، لم يجبني. الآن، وللغرابة، سيكون هو الفرديُّ في المجموعة. لو أخبرني أحدهم بهذا قبل شهرين لما صدقته.

قلت لباتريشيا إنني لن أقابلها يوم الجمعة لأن عليَّ مساعدة أمي في البيت. أخجلني اضطراري إلى الكذب، على الرغم من عدم جاهزيتي للاعتراف لها بموضوع الألعاب حتى الآن. أعرف أنه هراء ولكنني أخاف أن تسخر مني. يومًا ما سأضطر إلى توضيح أمر علاقتي بها، إنها تعجبني وفي نفس الوقت أشعر بأنني يجب أن أكون على مسافة احترازية منها، ولا أقصد فقط أنها حينما أحتضنها، عند تنزهنا، تحاول التملص، بل ما قالته منذ أيامٍ بخصوص العائلات: لا بد أن أبويها شجَّعاها على أن تحظى بآراء وهوايات مستقلة، تثير الدهشة أحيانًا، حينما تحلل أخبارًا سياسية مثلًا.

أما أمي فلم أكن مضطرًّا إلى تبرير شيء لها هذه الجمعة. كانت تحتفل بتقاعد إحدى زميلاتها في العمل، واتفقت على الذهاب إلى العشاء، وبذلك بحلول الثامنة باتت الليلة لي وحدي. اتفقوا معي على ميعادٍ أبكر، في العاشرة. قضيت يومين أعتصر دماغي لأشرح لها أنني أود المكوث في البيت هذا اليوم وتناول العشاء قبل الوقت المعتاد. أحيانًا يكون التخطيط بلا فائدة.

تساءلتُ أيضًا: لماذا العاشرة؟ أستكون جلسة طويلة؟ أسيظهر تشاندرا؟ أسيكون نزالًا شخصيًّا أم تجربة أداء أخرى؟ أسأفوز عليه آخذًا في الاعتبار أنهم يصعبون عليَّ الأمر مرة تلو الأخرى؟ كم تحدٍّ يجب عليَّ تخطيه كي أصبح من فئة ++A؟

والأهم من ذلك، أيستحق الأمر العناء؟ استحممت في ذلك اليوم قبل البدء باللعب؛ احتجت إلى الاسترخاء.

أدخلت بياناتي التعريفية. توقعت ظهور لوحة تحكم في (درون) فوجدت شيئًا مختلفًا تمامًا. كنت أعرف نظام عمل (المصنع) وحاولت استيعاب شرح الجهاز وإمكانياته في أقل من دقيقة، كان مذهلًا. رأيته من قبل كلعبة أطفال في مجلة ما، وفكرت للتوِّ في أنه سيثير جنونًا في ألعاب مستقبلية. هذه المرة أصابوا الهدف!

كان عبارة عن شيء أشبه بـ(بنتاكوبتر)، وهو جهاز ذو سطح مستوٍ تقريبًا، شكله شبه بيضاوي، له خمس مراوح مُثبّتة على هيكله. بالنظر إلى موضع وتناسب الطيار، الموجود في المنتصف، لا بد أن أبعاد الطائرة خمسة في سبعة أمتار تقريبًا، وثمة ست كاميرات فيديو موزَّعة على الهيكل، والعديد من أجهزة تصويب المدافع الرشاشة الأمامية والجانبية، إضافةً إلى قاذفتَي قنابل، إحداهما في المقدمة والأخرى في الجزء الخلفي. لست مهووسًا بالأسلحة. أُفضِّل تحديات (الدرونز)، وليس فقط حينما يتعلق الأمر بإطلاق النار.

لكنه استحق عناء اللعب. سمعت من قبل حديثًا عن الشاشات غير التناظرية، إلا أنني لم أجرِّبها قط. تَجمع لوحة التحكم في أي طائرة بين الرؤية البصرية والإلكترونية، لكن العقل البشري يلخصهما في معلومة واحدة: مسار، ارتفاع التحليق، الأهداف المعادية... بدا ذلك الشيء مختلفًا. يمكن التحكم في الجهاز عبر الجزء العلوي، بينما يعرض الجزء السفلي ما يحدث في ساحة المعركة المفترضة، عن طريق كاميرات متعاقبة.

لا بد أن يكون اللاعب من فئة +A على الأقل ليُسمح له باللعب به! لم يكن في متناول أي شخص، وخاصةً في أول استعمال له.

كنت أعلم أيضًا أنني أحتاج إلى ما يقرب من دقيقتين للتأقلم مع هذه الآلة، واستغللتهما: التشغيل، تدوير المُحركات، التحكم في أذرع الدفة، تشغيل الكاميرات، آليات الإطلاق، التزود بالذخيرة، الدوران...

بعد مرور ذلك الوقت، سألتني الشاشة: "Ready?". نعم، بالطبع. تنفَّست بعمقٍ، وطرقعت أصابعي متذكرًا أزمنة سالفة من التمارين على الآلة الكاتبة.

فور قبولي التحدي، بدا لي الأمر أكثر تعقيدًا مما تخيلت. كان ثمة مدوار، ومقياسٌ للارتفاع، وعارضُ قدرةٍ لكل من المحركات الخمسة، ومؤشرات للسرعة والاتجاه، ووقود، وعداد يُظهر عدًّا تنازليًّا بأجزاء من الثانية بدايةً من الدقيقة 30، ويشير بالتأكيد إلى استقلالية عمل الجهاز... بالإضافة إلى وجود معلومات عن الذخيرة وأجهزة التصويب في كل واحدة من الكاميرات الستة... كان هذا أكثر شيء معقَّد تعاملت معه على الإطلاق، فكرت في ذلك بينما أشغِّله، وتمكَّنت من رفعه عن الأرض.

كان مقياس الارتفاع ينتهي عند 60 قدمًا وبه شريط أحمر ممتد إلى 50 قدمًا، لذلك افترضت أن هذه اللعبة لا تُستعمل في المعارك الجوية. وعلى الرغم من مراوحه الخمس، فقد جرى التحكُّم في هذا القرص الطائر وفقًا لنفس قوانين الطيران التقليدي، وافترضت -في الواقع- أن تلك المراوح تتأرجح في اتجاهات مختلفة لتجعل الطائرة تنعطف إلى الجانبين ولتدور أيضًا حول نفسها. لم يسمحوا لي بفرصة اختبار أقصى زاوية دوران لها، وماذا سيحدث إذا تجاوزتها، ولكن لأنها المرة الأولى لم يكن لديَّ أي نيَّة للتهور. توقعت أيضًا وجود تنبيه ما يظهر تلقائيًّا إذا حاولتُ تجاوز وظائفها.

خلال بعض الوقت ارتفعت، انخفضت، بقيت على مسافة خمسة عشر قدمًا من الأرض، استدرت حول محورها الرأسي... نعم، إنها أشبه بمروحية أكثر من كونها طائرة. بمجرد أن تحكَّمت في تلك الآلة، شرعت في إلقاء نظرة على المشهد الموجود تحت قدمي. فوجئت

برؤية عدة شاحنات على جانب الطريق: إحداها ضخمة ولها قاعدة عملاقة، ربما هي المكان الذي أقلعت منه دون علمي.

افترضت أن شفراتها، في العالم الواقعي، لا بد أن تثير كميات كبيرة من الغبار، وأن المركبة الجوية الحقيقية كانت عديمة الجدوى في التنفيذ العملي، لكن الواقعية كانت مذهلة. الرؤية أشبه بالأشعة تحت الحمراء، وتحتم عليَّ ترشيح زوبعة الغبار. ظهرت لي هيئة بشرية ترفع ذراعيها، كأنها تحييني. بدا الأمر حقيقيًّا إلى درجة أنني أوشكت على رفع يدي.

لا أعرف كم مضى من الوقت في أثناء تجريبها، فقد حلَّقت فوق تلك الشاحنات، وسرت في خط مستقيم، وتحققت من القصور الذاتي للجهاز عندما حاولت التوقف والتعلق في الهواء... لم تكن السرعة عالية؛ إذ أشار عدَّاد السرعة إلى عشرة أمتار في الثانية كحدٍّ أقصى، لكن هذه اللعبة ذكَّرتني بخفة وتوازن طائر الطنان وهو يمتص الرحيق بين الزهور. كان واضحًا أن تقييمي لتلك العُدَّة سيكون 10 من 10.

ساحرة!

تفاجأت بظهور كلمات بلون أحمر في الجزء العلوي من الشاشة:

"Target, 2000 ft, NNW"

وكما حدث في حالات أخرى، ظهرت نقطة خضراء تشير إلى الاتجاه فوق نصف دائرة مُدرَّجة. ناورت متجهًا إلى هناك، بحسبة عقلية: 2000 قدم، 630 مترًا، بأقصى سرعة، قرابة 70 ثانية.

استمتعت وقتئذٍ بمشاهدة الكاميرات الست على الأرض، التي قدمت لي مجتمعةً عرضًا جويًّا بزاوية 360 درجة. اكتست الرؤية التي تعرضها الكاميرات باللون الرمادي، كشأن الرؤية بالأشعة تحت الحمراء أو الرؤية الليلية. الآلية بسيطة وبدائية في الوقت

نفسه: عند الضغط على الأرقام من 1 إلى 6، تعرض الكاميرات رؤية بانورامية بعرض الشاشة، ومن السهل الانتقال من واحدة إلى أخرى. كنتُ على وشك الوصول إلى وجهتي، حينما أصدرت الكاميرا رقم 4 صافرة خافتة. على ارتفاع عدة أمتار فوق سطح الأرض، بدا أن هيئتين بشريَّتين تنهضان، كأنهما تمعنان النظر في الطائرة. في نفس الوقت، استقرت دائرتان يتوسَّطهما صليب على هاتين الهيئتين. لم يكن عليَّ سوى إطلاق النار. اللعبة بسيطة لكن تأثيرها مدمِّر!

تعرضت المركبة لهزة. ظهر منحدرٌ أملس تحت قدمي، وبدا أن تلك الآلة في إمكانها الاستقرار أرضًا، وما عليَّ سوى معاونتها على تسهيل الهبوط وتوجيه مقدمتها. بالقرب من مركز الشاشات السفلية، عرضت الشاشتان 3 و4 بوضع الرؤية الليلية عدة متوازيات أضلاع رمادية، ميَّزتُها في اللعبة على أنها "منازل". أمام أحدها نقطة حمراء لامعة تتحوَّل إلى دائرة بنفسجية تبدو كأنها تضيء ثلاثة ظلال بشرية، ذات جانب أحمر وآخر مظلم. "ثلاثة رجال يلتفون حول شمعة"، هذا ما فكرت فيه. وبينما أقترب منهم، رأيت أنني أستطيع تفعيل الكاميرتين 3 و4 في نفس الوقت؛ إذ تحتل كلٌّ منهما نصف شاشة الكمبيوتر. ومن جديدٍ، تعرَّفت الكاميرات على تلك الهيئات وركزت عليها. أطلقتُ. ظهرت تلك الظلال وهي تنهار.

ظللت أقترب، والشعلة لا تزال متوهجة على الأرض والمخابئ تحتل الشاشات من 2 إلى 5. في هذا المشهد الواسع، رأيت ظلالًا بشرية أخرى تظهر عند الأبواب وتركض في اتجاهات مختلفة. تعقبتها شاشات التصويب الآلية للرشاش، وبتحريك عصا التحكم وسحب الزناد رأيت أنه من السهل اصطيادها. فعلتها هكذا: 1، 2، 3، 4...، برشقاتٍ قصيرة من الرصاص. كان الأمر ممتعًا، وعندما يعتاده المرء، يصبح بسيطًا نسبيًّا. ظللت أقترب، توقعت وجود المزيد من الأعداء للإجهاز عليهم، وتذكرت لعبة (الزومبي) التي كان المبرمجون يصنعونهم فيها تلقائيًّا.

بالطبع ظهر المزيد، ومن ثَمَّ بدأت المعركة الحقيقية، أعني لعبة الحرب التي كانت لتروِّع أمي. تحركت الظلال من جانبٍ إلى آخر، وبدا أحيانًا أنها تختفي بالاختباء وراء الصخور أو جدران المخابئ. تعرَّضتُ لإطلاق نار فظهرت الطلقات على هيئة نقاط حمراء اندلعت في بعض الأماكن، بينما تخبرني الشاشة بالأضرار، التي تبدو قليلة بالنظر إلى النتيجة والشريط المتحرك: ثلاث إصابات من قرابة عشرين إصابة متوقعة.

تحركت، ارتفعت، أطلقت، صرعت. كنت آخذ فكرة عن إمكانيات هذه المَركبة الخرافية، التي أود مواصلة التدرب عليها في أوقات الفراغ. ظهر ضوء برتقالي عندما زِدت السرعة، بينما أحاول أن أتخطَّى مَيلًا بعشرين درجة، وهو ما افترضت أنه حدٌّ خطيرٌ على استقرار اللعبة. في تلك الأثناء، استمر عدَّاد الضحايا في التصاعد: 10، 11، 12...

ليس الأمر أنني أستمتع بالقتل، ولا حتى في اللعبة، لكن حفْظ توازن الجهاز بينما تحلق أصابعي فوق الكاميرات وأنظمة التشغيل كان تحدِّيًا، كأنما انقسم عقلي وتضاعفت أصابعي. لجزءٍ من الثانية، شرد ذهني متذكرًا فصول الكتابة على الآلة الكاتبة التي التحقت بها منذ عدة سنوات، دون أن أتخيل أنني لاحقًا، وبعد الكثير من الوقت، سوف أكسب رزقي عن طريق ألعاب فيديو لم يكن في الإمكان تصوُّرها في ذلك الوقت. حينذاك تلقَّيت طلقتين أخريين، وأشار العدَّاد الأخضر إلى رقم 5 بنقطة صفراء، بدلًا من اللون الأخضر. كان فهم الرموز سهلًا. خمَّنتُ الألوان التالية على المقياس: برتقالي وأحمر. أمِن الممكن ألَّا أحصل مجددًا على الثلاثمئة يورو إذا وصلت إلى المنطقة الحمراء؟

دمرتُ جميع الأهداف. عندما اعتدت الأمر، رأيت أنهم حتى داخل المخابئ يعرضون لي صورًا ظلية أكثر قتامة: مهاجمين أوشكوا على الخروج من الأبواب أو يطلون من مستطيلات أشبه بالنوافذ.

استطعت أن أتوقع تحركاتهم، وأطحت بهم أيضًا، بمجرد أن خرجوا وأطلقوا النار. ارتفع الـ(score) إلى 27.

حتى بدا أن كل شيء قد انتهى، لم أنتبه لهذا الصوت الذي وجب عليَّ تخمين سببه. صدر صوتٌ يشبه "بيب"، ورصد أحدَ المعتدين على منظار التصويب. صدر صوت يشبه "ساب" مع الإطاحة بالهدف. أشار صوتٌ مكتومٌ يشبه "زوم" إلى أنهم أصابوني. لم يعجبني كون موسيقى الخلفية الركيكة نسخة اصطناعية من مقطوعة (الڤالكيري على صهوة الخيل)[1]. كان الأمر شديد الوضوح في فيلم (Apocalypse Now)، وبدا لي مفتقرًا إلى الأصالة. ينبغي لي أيضًا أن أذكر ذلك في تقييمي. أزعجتني زيادة مستوى اللون الأصفر ولاحقتُ المعتدي، كان مختبئًا فيما بدا أنه صدع بين الصخور؛ إذ إن وميضه الأحمر ظهر من هناك. لم أستطع رؤية ظله لكنني بحثت بسرعة عن أيقونة أحد المدافع وعاجلته بقذيفة، وأخذت أتابع أثرها البرتقالي باهتمامٍ. صنع انفجارها أولًا مجالًا قزحيًّا، ثم تحوَّل إلى فطر أرجواني، حتى هذا التأثير تحقق بشكلٍ جيد.

التفتُّ ببطء، مراقبًا المعلومات التفصيلية التي تُظهِرها الكاميرات. كنت قد اعتدت تلك الرؤية الليلية، وأظهرت الكاميرا 5 بقعتَين رماديَّتين داخل كوخ. وسَّعتُ الرؤية، لم يكونا اثنتين، بل ثلاثًا، وظهرت إحدى النوافذ بوهجٍ متلألئ. لم أرغب في تفسير ما كان هناك. أطلقت قذيفة دخلت عبر تلك الفتحة. فجأةً، بدا أن ذاك الموشور يحترق أولًا، ثم انفجر، مُخَلِّفًا أثرًا برتقاليًّا في تلك المنطقة من الشاشة. صدر صوت "بروووم" واقعيٌّ وصاحبَ إطلاق النيران. وحينها، فعلًا، بدا أن كل شيء انتهى. ظهرت كلمات حمراء اللون في الجزء العلوي من الشاشة:

"End mision. Score: 29. 100% enemies killed"

---

(1) مقطوعة موسيقية من (أوبرا الڤالكيري) للموسيقار الألماني ريتشارد ڤاجنر. (المترجمان)

أعقب ذلك عبارة أخرى، نصيحة متقطعة:

"Tip: destroy enemy buildings"

آمنًا من نيران العدو، ارتفعت إلى 30 قدمًا، فظهر أسفل مني الكثير من الأطياف المصطبغة بلونٍ برتقالي خفيف، أتاحت لي رؤية بانورامية لساحة الحرب تلك. لاحظت الوقت: مرَّت 17 دقيقة فقط على بداية اللعبة. كما اعتدت في تجارب المحاكاة الناجحة، بدا لي الوقت أطول من ذلك بكثيرٍ. انخفضتُ وأخذت أبتعد، وعندما وصلت إلى المنحدر الذي نزلت عبره قبل دقائق استدرت، وركزت الكاميرات الأمامية على المباني الأربعة التي لا تزال منتصبة، وأطلقت نحوها الكثير من القذائف. كانت تصويباتي ممتازة حتى من تلك المسافة. أهدى إليَّ آخر الانفجارات قلعة باهرة من الألعاب النارية. وفقًا لما رأيت، فقد دمرتُ ذخيرة العدو.

هبطت إلى القاعدة بعد دقيقتين، أطفأت المحركات وأغلقت الأجهزة. إجمالًا، استغرقت 21 دقيقة، في إطار الزمن الآمن. ابتسمت بارتياحٍ عندما شكرني (المصنع). شعرت بالأسف الشديد لأن الأمر لم يستمر فترة أطول.

راقتني تلك الطائرة المعجزة! أحببتُ التحدي المتمثِّل في مضاعفة نهاياتي العصبية وأصابعي وعينيَّ...!

عندما أطفأت الكمبيوتر، فوجئت بالألوان البرَّاقة للأشياء في غرفتي. كدتُ أن أشعر بخيبة أمل لعدم استطاعتي رؤية ما تخبئه الأبواب والجدران.

كانت الساعة بالكاد العاشرة والنصف. من المؤسف أنني لم ألتقِ باتريثيا في ذلك الموعد، على الرغم من فوات الأوان للاتصال بها.

***

ID: 80278720

To: Headquarters Division Advanced War (DAW), Washington, DC

Origin: F. W. Oates, E-9 DAW/M.J. North, E-4 DAW, Siracusa, NY

Title: About the use of civilians in military missions

CLASSIFIED

Report two/#3: The inevitable human monitoring

كان حلم مصممي (الدرونز) الأوائل هو تزويد هذه الطائرات بالذكاء الكافي لتأدية مهامها بشكلٍ مستقل. لقد أدَّى التحسُّن في أنظمة تحديد المواقع، ومعالجات الصور، ومعدل نقل البيانات في الاتصالات وأنظمة الدعم الأرضي والهوائي اليوم، إلى مضاعفة القدرة على المراقبة والقتال لدى طائرات (UAV) الحالية، على الأقل 100 مرة مقارنةً بالنماذج الأولى. من المتوقع أن تتضاعف هذه القدرة في السنوات القادمة عشر مرات، وكل ذلك يرجع إلى التقدم التكنولوجي.

في ديسمبر 2011، اعتُرِضَ طراز حديث من طائرة RQ170 بلغت تكلفتها 11 مليون دولار، من قِبل قوات جوية معادية باستخدام أحد البرامج المتاحة تجاريًّا بسعر 26 دولارًا. من ناحية أخرى، وبعد رهان قدره 1000 دولار، تمكَّن باحثون من جامعة تكساس من اعتراض (درون) والسيطرة عليها. من المعروف أنه في الوقت الحالي يجري البحث عن أنظمة تشفير فعَّالة تعيق الوصول إلى معالجات طائرة (UAV). من المعروف أيضًا أنه لا وجود للحماية الكاملة، لكن الغرض منها هو استعمال الخوارزميات التي تمنع الوصول في وقتٍ لا يقل عن ثلاث ساعات، وهو ما يُعَد وقتًا مقبولًا من الناحية الأمنية.

يُقدَّر أنه في غضون عشر سنوات، ستحلِّق فوق أراضي الولايات المتحدة قرابة عشرين ألف (درون) في مهام استطلاعية بوليسية ولحركة المرور ولمهام بيئية. على الرغم من أن هذه الطائرات قد لا يتعدى وزنها ثلاثة كيلوجرامات وأنها غير مسلحة، يمكن اعتبار كل منها صاروخًا في حال استعملته أيدي العدو، إذا ما وُجِّهَت إلى هدفٍ حساس، مثل طائرة ركاب أو مبنى.

على الصعيد العسكري، لا يكفي هذا الهامش من الساعات الثلاثة عندما يتعلق الأمر بطائرات مسلحة بقنابل موجَّهة بالليزر أو صواريخ بالغة الدقة. تشير التقديرات إلى أنه بحلول عام 2050 سيجري تطوير أنظمة بمنأى عن التدخل البشري، ولكن حتى ذلك الحين لا غنى عن العامل البشري حين يتعلق الأمر باتخاذ قرارات سريعة.

منذ سنوات، يدرس أطباء الأعصاب وعلماء النفس ومهندسو النظم ردود فعل الأهداف في العمليات القتالية من خلال ألعاب الڤيديو. خضعت حركات أفضل اللاعبين في العالم للتسجيل والتحليل في أثناء اتصالهم بالإنترنت، وصرَّح مختلف الفنيين أنه لا ولن يمكن خلال السنوات العشر القادمة صُنع أي آلة تتجاوز سرعة وإبداع ومبادرة وموثوقية اللاعبين البشريين. مرة أخرى، من المفترض أنه في عام 2050 ستكون الآلات قادرة على مضاهاة أو تجاوز المهارات العالمية للاعبٍ بشري سريعٍ ومدرَّب جيدًا.

بناءً على ما سبق، وإلى أن يحين عام 2050، يبدو مستحسَنًا أن تُنفَّذ جميع المهمات السريعة -التي تنطوي على تدمير أهداف العدو في أوقات الحرب- مباشرةً على يد مستخدمين بشريين، كما هو الحال اليوم مع بيتر أ. ومع أندرو س. فحتى وإن تعرضت الاتصالات للتشويش أو الحجب، يمكنهم تولي مسؤولية الطائرة واتخاذ قرار، في أسوأ الظروف، بتدميرها ذاتيًا.

ومع ذلك، فبلدنا لا ولن يحظى في السنوات القادمة بما يكفي من الموظفين المؤهلين، كذلك لا يجب ولا ينبغي لنا أن نحدَّ من البحث عن هؤلاء الأفراد داخل حدودنا.

ما هو الحل لهذه المشكلة المزدوجة؟

***

23

قضيتُ السبت غاضبًا ينهش التفكير رأسي. عندما كلمت باتريشيا في ذلك الصباح قالت لي إن لديها حفلًا عائليًّا ولن تستطيع مقابلتي. فسَّرت ذلك كعلامة على الاستياء لعدم خروجي معها يوم الجمعة. لكي أعاقب نفسي؛ إذ إن أمي لا تعاقبني، لم أتصل بأصدقائي كذلك. لم أشتهِ العودة إلى الانفراد في المجموعة، الآن بعدما وجدت أخيرًا من يرافقني.

أتفهم أنني لم أكن رقيقًا مع أمي ذلك اليوم. تركتها تذهب وحدها لشراء مستلزمات المنزل متعلِّلًا بأن لديَّ الكثير من المذاكرة، واستلقيت ساعتين في غرفتي أؤنِّب نفسي لتركها وحيدة بعربة المشتريات، لكنني لم أقدر على الخروج لمقابلتها. جعلتها مسؤولة عن كل شيء: قيود بُنوَّتي، وغياب أبي، وعلاوة على ذلك موت أختي، بسبب إصرارها على تحويل ما لم يكن سوى صعوبات بسيطة إلى مأساة.

كان الغداء مُوترًا واقتصرت محادثتي على كلمات مقتضبة. وبينما أنا منغمسٌ في بئرٍ من الصمت، لُمتُ نفسي أكثر على تصرفي لكنني لم أستطع فعل شيء لعلاجه. حانت لحظة فكرت فيها أنني مثلها تمامًا، هي أيضًا تُعاقِب بالصمت حينما تغضب من أحدهم. تذكرت مشاهد حدثت بين أبويَّ. كان يعود إلى البيت ويلقي التحية بلامبالاته المعهودة التي لا تخلو من المرح: كيف الأحوال بالقصر؟ هل لدينا كركند شهي على العشاء؟ لطالما ردَّت أمي بتأففٍ، من يدري بسبب أي شجار عفن وقع بينهما.

اعتاد أبي -بعدها بدقائق- أن يغرق في السكوت، ماذا كان ليفعل؟ تحركت أختي كطَيفٍ بين صمتهما، محاولةً ألا تعارض أيًّا منهما، وتعمل كوسيطٍ لحاجاتهما. أما أنا فاعتقدتُ، حينذاك، أن العالم هكذا: للآباء عالمهم المُظلم والصدامي؛ على الابنة الكبرى موازنته، والأخ الصغير متفرج سلبي.

عندما ماتت لوثيًّا، انتابني الذعر من فكرة اضطراري إلى أداء دورها. لم أكن لأتوسط بين أبويَّ، مِلت إلى أحدهما، إلى مَن بدى لي أضعف. توحدتُ مع أمي، كنت ظلها.

أظن أنه عندما يكبر المرء يبدأ في إدراك ما كانت عليه حياته. نعم، الحقيقة أن اغتراب أبي بدأ قبل موت لوثيًّا، لكنني أظن الآن أنه مثَّل طريقة للهروب من الحقيقة، أو على الأقل لكيلا أعاني كثيرًا بسببها. بعد ذلك، كانت الحقيقة في غاية القسوة على الجميع. في هذا الحي حقائق خشنة كورق الصنفرة. بعد كل شيء وعلى الرغم من كل شيء، خرج أبواي سالمين. يمكنني ضرب أمثلة على ذلك.

مساء السبت بدا كأن مخاوفي قد تبدَّدت. تلقيتُ مكالمة من باتريشيا، سألتني كيف قضيت اليوم، أجبتها: "بشكلٍ جيد، جيد جدًّا. كنت أعمل طوال الظهيرة". كَذبت عليها كما اعتاد أن يفعل أبي دائمًا.

اتفقنا على يوم الأحد. في اليوم التالي عانيت الأمرَّين كي أشرح لأمي أنني لن أتناول الغداء في البيت، وأنني سآكل مع أصدقائي، ونعم سآكل جيدًا، ولن أتأخر كثيرًا...

ذهبنا إلى مطعمٍ يقدم أطعمة نباتية، إنها المرة الأولى التي أدخل فيها مطعمًا من هذا النوع. بالطبع قلت إنني متحمس للباذنجان والسلطات وخاصة جبن التوفو، للحظة تخيلت الحياة بجانب باتريشيا ونحن نأكل أطنانًا من التوفو.

أعترف أنه بمرور الوقت تزداد رغبتي في أن أكون معها، وأن نكون وحدنا. بخلاف غيرها من فتيات المدرسة، لديها ذلك النوع من المحادثات التي تحفز المرء على مواصلة التفكير. ليس لأنها تتكلم عن الكُتب والأفلام بل أيضًا عن موضوعات أخرى كثيرة متعلقة بالدراسة، والمستقبل، والعالم اليومي والبعيد، والهوايات، والصعوبات، وتفعل ذلك بتلقائية أحسدها عليها. على سبيل المثال، عندما تخبرني بأن أحد أعمامها في السجن بسبب لا أعرف أي مكائد اقتصادية. أما أنا، على النقيض، فليس لديَّ ما أحكيه لها.

في ذلك المساء، قبل الذهاب إلى السينما، ذهبنا في تمشية طويلة حتى ميدان إسبانيا، كان اليوم دافئًا، والصيف مستمرًّا، والكثير من الناس في الشوارع. تشابكت يدانا أنا وباتريشيا ولم أتوقف عن النظر إلى الثنائيات الأخرى وهم متعانقون أحيانًا، وأحيانًا أخرى يقبّل أحدهما الآخر على مرأى من الجميع، في بعض الحالات استقرت أصابعها أو أصابعه في نطاق خصر بنطال الآخر، أحيانًا اقتربت يده من صدر فتاته بلا خجل... عندما وصلنا إلى الميدان، كان بعض الثنائيات مستلقين على الحشائش، في أوضاعٍ وددت لو شاركتها مع باتريشيا: هي مستلقية على بطنه؛ هو يضع يده على خصرها، كلاهما بسيقان متشابكة، كلاهما يقبّل الآخر طويلًا...

سألت نفسي إن كنت بدأت أحب باتريثيا. هل كانت رغبتي فيها طريقة تثبت أنني واقع في الحب؟

تجرأت وحكيت لها عن عملي.

سألتني متشككة:

- هل تود القول إنهم يدفعون إليكَ لتجربة ألعاب الڤيديو؟

أجبتها شارحًا:

- نعم، أجرِّبها، أكتب تقارير، بهذا يحسِّنونها ويتداركون الأخطاء؛ لا تدرين مدى تعقيد ذلك.
- حسنًا، أتخيل ذلك، لكنني لم أفكر قطُّ في أنهم قد يدفعون إلى أحدٍ مقابل ذلك؛ أعني لأحدٍ قد أعرفه.
- حسنًا، ولا أنا أيضًا كنت لأتخيل ذلك من سنوات، لكن الوضع كما ترين. رغم أن الأمر يبدو كذبة فإن عالم ألعاب الڤيديو يضخ أموالًا أكثر من الكتب والسينما والموسيقى مجتمعة. لا أقول ذلك لأتصنَّع الأهمية.
- أعتقد أن الكوكب يسير بهذه الطريقة. هذا يفسر أشياء كثيرة.
- يبدو لي أن مشكلات العالم ليست بسبب ألعاب الڤيديو؛ فالحروب واللصوص والأزمات وأشياء أخرى سبقت في وجودها أجهزة الكمبيوتر، ألا تعتقدين ذلك؟
- نعم، بالطبع، لكن يبدو لي أن ذلك كله ليس إلا طريقة للابتعاد عن الأمور الشخصية؛ أفترض أنك تفتح لعبة ڤيديو وتنغمس في قتل الفضائيين وتنسى المشكلات.
- هناك طريقة أخرى لرؤية الأمر: يقتل الناسُ الفضائيين وينفِّسون عن عدوانيتهم؛ فقتل المريخيين أفضل من أن ينتهي

الأمـر بتبـادل إطـلاق النـار مـع الجـيران، ألا تعتقديـن ذلـك؟ بالإضافـة إلى أنـه ليسـت كل الألعـاب تتعلـق بالفضائيـين؛ ذلـك الأمـر قديـم جـدًّا.

- مريخيـون أم كـرات مطاطيـة أم بـط أم أفيـال، لا فـارق؛ يتطلَّـع النـاس إلى إطـلاق النـار أو السـحق رجـمًا بالحجـارة.

عارضتها:

- إيـه، إيـه... أولًا ليسـت كل الألعـاب للقتـل، وثانيًـا إنهـا طريقـة لتطويـر المهـارات.

أجابت بتعالٍ:

- حسـنًا، نعـم، أعـرف أن هنـاك السـودوكو، الكلـمات المتقاطعـة، لعبـة الرجـل المشـنوق ولعبـة سـكرابل عـلى الكمبيوتـر، لكـن يمكن لعـب كل ذلـك عـلى لوحـات وبـالأوراق، وفـوق ذلـك في صُحبـة.

عزَّزت قولها:

- ألعاب الكمبيوتر تشجع النزعة الفردية.

تجرأتُ على معارضتها:

- ليـس لديـكِ أدنى فكـرة! إن أفضـل الألعـاب اليـوم هـي التـي تمـارَس عـلى الإنترنـت، أحيانًـا مـع زمـلاء موجوديـن عـلى بُعـد آلاف الكيلومـترات.

أصررت:

- ومـن ناحيـة أخـرى فهـي تشـجع عـلى التواصـل والرفقـة، كالبريـد الإلكـتروني أو تويـتر أو واتسـاب. هـذه الأشـياء أيضًـا لهـا مخاطرهـا وعيوبهـا بالطبـع، لكنـه حـال كل شيء في الحيـاة!

دُرنا حول السينمات منهمكَين في المحادثة إلى درجة أننا لم نقرأ الإعلانات. سألتني حينها: "وأنت ماذا تلعب الآن؟ ما هي ألعابك المفضَّلة؟".

وأضافت ساخرة:

- ذات الطابع الدموي والأشلاء وما إلى ذلك؟
- أحب تجربة (الدرونز)، لكنني أفضِّل الألعاب الإستراتيجية التي تنمي الذكاء أو أي مهارة كانت.

فكرت في أنه يكفي هذا القدر من النقاش وحاولت إنهاءه:

- ماذا؟ هل يعجبك فيلم ما؟ ما زالت الساعة الخامسة والنصف.

لكنها لم ترغب في ترك موضوع الحديث. أرادت أن تعرف:

- (درونز)؟ ما هي (الدرونز)؟
- طائرات بلا طيار.

وأوضحتُ محاولًا إنهاء الحديث:

- إنها في الواقع مثل مُجسمات الطائرات؛ في السابق كان يجري التحكُّم بها من بُعد كما تعلمين، لكن الأمر يحدث الآن عن طريق الكمبيوتر.

توقفت أمام إعلانات إحدى السينمات. لم أملك أدنى فكرة عن الأفلام ووددتُ أن تختار هي. نهتدي أنا وأصدقائي أحيانًا بتفاصيل مخجلة في الإعلان أو عن طريق تلك الأوراق التي يوزعونها وتحوي قصة الفيلم، أقصد أشياء أخجل أن أعترف بها لفتاة. وقفت باتريثيا بجانبي، لكنها عزمت على الاستمرار في موضوعٍ بدا لها مثيرًا للجدل.

قلت سابقًا إنها تهوى الجِدال، وبدا أن لديها معلومة ما. قالت كأن شيئًا خطر ببالها:

- آه، نعم! أليست (الدرونز) هي طائرات التجسس التي تُعد أحدث صيحة الآن؟ نعم، منذ قليل كان هناك خبرٌ في صحيفة؛ استعملوا إحدى تلك الطائرات لقتل عددٍ لا أعلمه من الأشخاص لا أعرف أين...

- نعم، حسنًا، لكن تلك ليست ألعابًا.

أجبتها عابسًا بعض الشيء، في الوقت الذي تذكرت فيه لقبي الذي لن أعترف به مهما كان الثمن. التزمت بما يهمني:

- أتعرفين أيًّا من هذه الأفلام؟

- نعم، سمعت عن أحدها، ذلك الذي مررنا عليه.

كنت لأختار فيلم خيال علمي، لكننا شاهدنا فيلمًا إنجليزيًّا مبالِغًا في الدراما لم أعد أتذكر عنوانه. أمسكت بيدها وقضينا نصف الفيلم متشابكي الأيدي، حتى تخدرت يدي؛ لم أرغب في إفلاتها، لكن أسعدني أنها فعلت ذلك، باحثةً في الوقت نفسه عن موضع أكثر راحة.

عند الخروج تكلمنا قليلًا عن الفيلم، وأعطتني تفسيرًا لم أفكر فيه قبلها. كان ملحوظًا عليها أنها قارئة، وعلاوة على ذلك، بناءً على ما قالته لي، يمتلك أبوها الكثير من شرائط الڤيديو والـ(DVD). مرةً أخرى، أسفتُ على ضآلة التغذية الثقافية التي تلقيتها في طفولتي.

عادت إلى الموضوع:

- بخصوص (الدرونز)، على الرغم من كل ما قلت، فإنها كاللعب بالدبابات وأشياء من هذا القبيل؛ بالنسبة إليَّ يبدو الأمر غير أخلاقي بعض الشيء، لا أعلم...

- يووووه، يا فتاة، أنتِ مثل أمي.

- جيد، إن كانت أمك تشمئز من ألعاب الحروب فنحن مشتركتان في ذلك.

كذبتُ بوقاحة، متذكرًا اللعبة التي لعبتها منذ يومين:

- حسنًا، لكن أؤكد لكِ أن ما يعجبني هو التحدي: الإقلاع، الهبوط في ظروف صعبة، توجيه طائرتي دون معدات... أشياء من هذا النوع.

- جيد، أعتقد أنه لو كان الأمر كما تقول...

وفجأةً غيرَت الموضوع. بعد إرضاء حب استطلاعها، تكلمنا عن إيلينا وعن أبِل، عن أندرِس وعن مارتا، عن رغبتها في دراسة الطب، عن الحفلة العائلية البارحة، عن عطلتها القادمة التي يود أبواها قضاءها في جنوب فرنسا.

شعرتُ بالانزعاج، وجاهدت كي لا أكون مثل أمي، كي لا أغرق في بئر الصمت وأختبئ في ظلها. كنت لطيفًا معها، ومهتمًّا بتفاصيل قالتها لي، وحاولت تذكر كل شيء كي لا أخفق في محادثات قادمة.

رغم كل شيء، وتمامًا مثل أمي، عندما اقتربنا من بيتها لم أستطع تجنب سؤال لاذع نوعًا ما:

- اسمعي، ألم تغيري بعد الاسم المبتذل لبريدك الإلكتروني؟

استدارت، ابتسمت لي، قرَّبت وجهها من وجهي، وقالت لي كأنها تُسر إليَّ حديثًا:

- أعمل على ذلك يا أحمق.

دون أن أتوقع ذلك، شَعُرت بشفتيها على شفتيَّ ولساني يلامس لسانها بضع ثوانٍ، فاجأتني عذوبة لعابها الدافئ وأردت المزيد، المزيد...

توادعنا بعد برهة. لم أتوقف عن النظر إليها حتى اختفت في مدخل البناية؛ تعجبني هذه الفتاة. أرغب فيها بالطبع.

وكيف...

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

24

منذ مدة لم تتصل بي كاتارينا. تراسلني عبر البريد الإلكتروني بدلًا من ذلك، كما اقترحت عليها، لكنني أعترف أنني أود سماع صوتها وهي تهنئني. تُكثر رسائلها من مدحي، لكنها باردة. في العالم الحقيقي لا يمكن أن يصفق لي أحد. أعلم أنني أديت بشكلٍ جيدٍ في ذلك اليوم لكن (Assassin) ليس له وجود مادي في هذا العالم. طلبت مني كاتارينا مواجهة تشاندرا. بالطبع وافقت على طلبها، ولم أعد أميز إن كان ذلك لرغبة داخلية أم لأسبابٍ اقتصادية، ربما أنني أنحرف وعليَّ العودة إلى زمن المكافآت الشحيحة والترضيات البسيطة والسرية.

تحدثت إلى أمي الليلة الماضية. لم أنوِ فعلها، لكن هذا ما حدث. لا يهم السياق. أتذكر أننا كنَّا نتناول العشاء، بينما يصنع التلفاز كالعادة خلفيةً من الضوضاء لصمتنا المعتاد الذي تتخلَّله محادثات تافهة. أطلقتُها بعفوية: "ماما، بم شعرتِ عندما ماتت لوثيًا؟".

حدقت إلى وجهي باندهاشٍ، وللحظة خشيتُ أن تجهش بالبكاء، وندمتُ على السؤال. ظلَّت على حالها وهي تجيبني بصوتٍ هادئ: "لا يمكنك تخيل الأمر يا بني؛ شعرتُ بسكينة". حيَّرتني إجابتها، فقد تخيلتُ في بعض الأحيان أن هذا السؤال سيتسبَّب في فيضان نهر من الدموع، وبدلًا من ذلك وجدت أمي تخفِّف من اضطرابي. أكملتْ:

- عند إعلان وفاتها، كانت لوثيًا ميتة بالفعل منذ عدة أيام. في يومها الثاني بالمستشفى أخبرنا الأطباء بأن دماغها توقف عن العمل، وأنها لن تتعافى أبدًا. في تلك الأيام، خفتُ أن يعطونا ما تبقى من أختك قائلين لنا: "تفضَّلوا، خذوها إلى المنزل واعتنوا بها"، لو حدث ذلك لكان أمرًا فظيعًا للجميع.

لم أكن أعرف ذلك! لو سألني أحدهم لأقسمتُ إني في أحد تلك الأيام عندما ذهبت إلى المستشفى تحدثت إلى لوثيًا ولعبنا (البارتشيس)[1]. الذكريات غادرة حقًّا. صمتت أمي وأردتُ معرفة المزيد، لأن ثمة شيئًا لم أستوعبه:

- لكنكِ غضبتِ من أبي لأنك أردت منه أن يجد مستشفى آخر ليعالجوها فيه، أليس كذلك؟

بدا على أمي الاستغراب حينما أجابتني:

- علاجها؟ أخبرونا أنه من المستحيل علاج أختك. أبوك هو من أراد تغيير المستشفى لرغبته في إبقائها على قيد الحياة بأي ثمن، وتجادلنا كثيرًا حول ذلك. كأنما أصابه الجنون، لم يكن ليمانع في وجود جثة حية في الغرفة لسنواتٍ وسنوات، فقد أراد أيضًا إعادتها إلى المنزل حتى عندما

(1) لعبة لوحية إستراتيجية وشعبية في إسبانيا. (المترجمان)

قيل لنا إنها انطفأت تمامًا. لحسن الحظ أن الأمر انتهى بموتها. كنت قد ودَّعت لوثيًا في يومها الثاني بالمستشفى، لكن أباك لا، أنت تعرفه، يحب أن يسير العالم على هواه. انتهى كل شيء هنا؛ إذ أخبرتني أمي بألا أقلق عليها، وبأنها بخيرٍ وأن ما يجب أن أفعله هو القلق حيال شأني الخاص، وأن الحياة أمامي. ساعدتها في تجفيف بعض الأواني بينما تغسلها وأعطيتها قبلة قبل ذهابي إلى غرفتي.

شعرت برغبة في التحدث إلى باتريثيا، لم أكن لأخبرها بشيء ولكني رغبت في سماع صوتها فقط. لم أستطع الفرار من إزعاج الذكريات التي تحوم حولي: لوثيًا تُعِد لي الإفطار وأنا طفل، لوثيًا تسمح لي بالغش في لعبة الإوزة[1] أو في لعب الورق، لوثيًا تنقل الرسائل من هنا إلى هناك، لوثيًا تحكي لي قصصًا في الليل حتى أنام.

لم أبكِ، رغم اعتقادي بأنني لو استطعت فعلها لتحسَّنت حالتي.

واجهت تشاندرا يوم الخميس. كنت قد تخيلت سيناريو مختلفًا، مختلفًا تمامًا. وكما حدث في مرات أخرى، اختار الميدان والأبطال والأسلحة، عازمًا على الفوز، دون أن يعرف أنني ما زلت أفضل منه بكثيرٍ.

لعبت بشخصية رجل طويل القامة، ملتحٍ، غير مهندم، يرتدي معطفًا طويلًا بني اللون. كنت، أو كان هو يسير في شارعٍ مزدحم بمدينة كبيرة، وكالعادة، أذهلتني محاكاة الرسوم المتحركة للواقع: نساء متأنقات يعبرن في طريقي، أو أطفال يتحدثون في أثناء عودتهم من المدرسة حاملين حقائب الظهر، أو العجائز الذين يجلسون على مقاعد، أو عجائز متسولين يجرجرون أقدامهم في الشوارع. لم أفهم الغرض من

(1) لعبة أطفال لوحية وشعبية في إسبانيا. (المترجمان)

اللعبة، رغم أن هذا الرجل الطويل الملتحي كان ينظر إلى الوراء من حين إلى آخر، وكشفت عيناه عن قلقٍ كبير، ربما ذعر.

ثمة القليل من الأيقونات على الشاشة. تسمح إحدى الخانات بتفقد خريطة المدينة ومداخل مترو الأنفاق والسلالم ومحطات الحافلات، وثمة رمز مسدس يسهل التعرف عليه، يتيح استعمال سلاح ما، لكنني لم أعرف مكانه. علّمتني التجربة أن أتحكّم بالأفراد كأنهم أشياء، ولم يبتعد ذلك الغريب عن الأكواد المعتادة: يمكنني التوقف، أو الرجوع إلى الخلف، أو الركض، أو تجنُّب العقبات أو اجتياز عقبات معقولة. تستطيع ذراعاي الضرب، وحمل بعض الأشياء بل والوصول إلى جسدي، وعرفت أنني لن أجد هذا السلاح لا في الخصر ولا تحت الإبط ولا في الجيوب.

لم يعطوني تعليمات بشأن اللعبة، لكن بدا واضحًا أنني أهرب، وأن أحدهم يلاحقني، إما أن يباغتني هو وإما أباغته أنا. بوصولي إلى إحدى النواصي، اختبأت وفتحت الخريطة. ظهرت نقطة حمراء، في الشارع نفسه، وبدا أنها تشير إلى مُطاردي، لكن عندما نظرت حولي من موقعي على الناصية وجدت المكان مزدحمًا بالناس إلى درجة أنني لم أميز أيهم قد يكون هو. المرأة ذات الحقيبة والحذاء ذي الرقبة؟ رجل بقميص أحمر مُلفت؟ الثنائي الذي يتحدث بمرح؟ كان ذلك غباءً، وأوشكت على إغلاق الكمبيوتر للحظة، لكن فضولي كان أقوى.

ما الذي يسعى إليه تشاندرا؟ إلى قتلي؟ نعم، ولكن لماذا؟

مشيت بسرعة، ودخلت متجر ملابس. سمحت الواجهة الزجاجية برؤية عبور المارة الذين راقبتهم من خلف أحد المانيكانات. فتحتُ الخريطة. ظهرت النقطة الحمراء خلف النافذة مباشرة. عندما ضيقت بصري لأميز وجهه، تهشَّم الزجاج، وسقط إلى قطعٍ صغيرة، بينما تمر رصاصة محدثةً صفيرًا بجانب وجهي. بعد مدة قصيرة فقط

سمعت صوت الطلقة، وتساءلت عما إذا كانت الأمور تجري على هذا النحو فعلًا، إذا أمكن ألا يسمع المرء الدويَّ المتسبِّب في موته. لن أحكي التفاصيل كلها. قفزت فوق إحدى مناضد الشرب، ولاحظت هسهسة رصاصة أخرى ورائي، وصعدت بعض السلالم، وذهبت إلى الطابق العلوي، ونزلت عبر سلَّم الحريق المُلحَق بنافذة، ووجدت نفسي مرة أخرى أركض على الأرصفة... لبضع لحظات ابتعدت عن النقطة الحمراء، وحاولت تحديد موقعها دون جدوى. في مراتٍ أخرى، أظهرت الخريطة عَدوِّي على بُعد أمتار قليلة أمامي، مختبئًا خلف صندوق بريد أو محميًا بإحدى النواصي. تمكَّنت من تجنُّبه ولكن إلى متى؟

كأننا في فيلمٍ، نزلت إلى مترو الأنفاق قفزًا، وقفزت من فوق بوابات الدخول. أخذت قطارًا، وتمكَّن مُطارِدي من الركوب في العربة التالية؛ لم تكن هناك طريقة للابتعاد عنه، ربما امتلك خريطة مثل خريطتي، وربما لم أظهر فيها سوى كنقطة سوداء.

تقدَّم الرجل الملتحي، أنا أو هو، إلى مقدمة العربة، وحاول الوصول إلى العربة السابقة، لكن بدا الباب مغلقًا. أظهرت خريطتي النقطة الحمراء في مقدمة العربة التالية، ورائي كظلي؛ إذ لا بد أنه مُنع أيضًا من الوصول إلى العربة التي أستقلها. فتحتُ الباب عندما توقف القطار، ووصلت إلى الرصيف. أخفتني كتلة بشرية عن قاتلي. قلت لنفسي: "لماذا؟ ما هو شكل تشاندرا؟ ما الشخصية التي اختارها لنفسه؟".

تمكَّنت من الخروج إلى الشارع بعدما صعدتُ سُلَّمًا درجتين بدرجتين وثلاثًا بثلاثٍ، متفاديًا السائرين ببطء أو حاملي الحقائب. في الشارع، عبرت الطريق متفاديًا سياراتٍ بدت بواقعية فولاذية. أُغلقت الخريطة خلال ثانيتين ومُنعتُ من استباق تحركات تشاندرا، لكن

أخيرًا، بينما أنا رابض خلف عربة خضراوات، تمكَّنت من رؤية جزء من هيئته، شاب طويل ونحيف!

تمكَّنت من استباقه وترصده متفاديًا بعض العقبات، ومختبئًا بين الحشود، أو جالسًا القرفصاء خلف بعض السيارات. في ظروفٍ مشابهة، أجزم أنني كنت لأستطيع التقاط مسدسي وإطلاق النار عليه، لكن الأفضلية لم تكن لي. ما الذي يسعى إليه؟ قتال وجهًا لوجه؟ تدربت على ذلك الأمر منذ فترة، ووجدته كريهًا بتلك الحركات الاصطناعية المنسوخة من أفلام الكونج فو السيئة، والمعارك المخضبة بالدماء وحتى الأسنان المكسورة التي لا تحفز سوى أكثر الغرائز بدائية، ولم تترك مجالًا لاختبار الإستراتيجيات أو الذكاء. لن أخوض ذلك!

أخيرًا فهمت شيئًا. ظهر المسدس الوحيد الذي رأيته في اللعبة. كان في حوزة حارس أمن بدا خارجًا من أحد البنوك. ركضتُ وضربت ركبته وانتزعت سلاحه، وتركته مطروحًا على الأرض. لم يرقني ذلك، لكنني أردت إنهاء اللعبة.

استمررنا في مطاردة بعضنا. نجحتُ في إطلاق النار عليه مرة، لكنه أفلت من رصاصتي. دخلت زقاقًا معتمًا وانتظرته فيه. كانت النقطة الحمراء قادمة من اليمين، وأقسم إنه لولا امتلاكه خريطة كاشفة مثلي، لما استطاع تحديد موقع اختبائي. رأيت بعض الناس يمرُّون بين ضوء الجدارين. قدَّرت أن تشاندرا سيظهر خلال أربع ثوانٍ، ثلاث، اثنتين، واحدة... رفعت سلاحي وصوَّبته على ارتفاع صدر رجل طويل، بينما إصبعي على الزناد.

لم أتوقع فخًّا. على نفس مستوى صدر ذلك الرجل ظهر وجه فتاة شابة يقيدها بذراعه. رفع مسدسه ولم أضغط الزناد.

ما أدهشني هو أن هذا الرجل الذي كان يلاحقني هو أنا نفسي. رجل مفزوع طويل القامة ذو لحية حديثة النمو، أكثر شبابًا بقليلٍ من الشخصية التي ألعب بها، لكنه أنا نفسي!

حينئذٍ أطلقَ الرصاص فمُت.

اسودَّت الشاشة.

لبضع ثوانٍ، تساءلت كيف ولماذا؟ كنت مرهقًا ومرتبكًا بسبب هذه اللعبة السخيفة، بسبب خدعتها الغبية.

هل اعتقد تشاندرا بسببها أنه أفضل مني؟ أم أنه كان يخبرني بأننا متماثلان؟ قلت لنفسي: "لا، أنا لست مثله، لم أكن لأفعل ذلك".

هممت بإغلاق الكمبيوتر. حين أوشكت على ذلك فوجئت برسالة:

"Sorry! ;-)".

***

ID: 80278720

To: Headquarters Division Advanced War (DAW), Washington, DC

Origin: F.W.Oates, E-9 DAW / M.J.North, E-4 DAW, Siracusa, NY

Tittle: About the use of civilians in military missions

CLASSIFFIED

Parte Three/#3: The pitfall

الحل هو جعل لاعبي الڤيديو، وهم جالسون باسترخاء في صالونات منازلهم، يعتقدون أنهم ينافسون لاعبين بشريين آخرين، أو ينفذون مهماتٍ قتالية افتراضية، مستخدمين قدراتهم وإمكانياتهم لصالحنا، دون أن يعرفوا ذلك.

لإثبات هذه الاحتمالية، سنفصِّل أدناه حوارنا مع أحد هؤلاء المستخدمين، سنسميه أ.

***

25

لو كان المرء يعيش داخل لعبة فيديو لاستطاع أن يجرِّب الحركات، ويتعلَّم تفادي الضربات أو عدم الإصابة بأذى. في كل مرحلة يتجاوزها سيعرف إن كان قد أدَّاها جيدًا، بل ويتلقَّى التهنئات عليها.

في العالم الحقيقي، ستظل حتى النهاية تقريبًا دون أن تعرف هل أديتَ جيدًا أم لا، لذلك بالكاد توجد حلول.

أتأمَّل أبي وأمي. قادهما كلُّ حدث من أحداث حياتهما إلى المكان الذي هما فيه، بما في ذلك موت لوثيًا المؤسف. بشكلٍ ما، فإن كل شيء بالنسبة إليهما أفضل مما كان عليه حين خرجا من القرية منذ ألف سنة. وبشكلٍ ما، لا يزالان مقيدين في العجلة المشؤومة التي دار فيها آباؤهما منذ مئة جيل مضى.

وأنا؟ في العالم الحقيقي أنا سباستيان، دون شَدة على النون، ولد صعب المراس وفقًا لأساتذتي وبعض الأشخاص الذين يعرفونني. أنا لا أحد.

في عالمٍ آخر ينادونني باسمٍ لا يجوز الاعتراف به، وأنا محط إعجاب بسبب قدراتي، لكن هذا العالم غير موجود، فهو لا يتعدَّى كونه نظامًا منسَّقًا من الـ(bytes) والأضواء الملونة على شاشة.

أظن أننا جميعًا نمرُّ باللحظة التي تبدأ فيها الأشياء الجيدة بالحدوث لنا. باتريثيا واحدة من تلك الأشياء التي حدثت لي، ربما هي أكثر شيء شائق حدث لي في حياتي المملة.

إنها لا تزال تعتقد، مثل أمي، أن ثمة قدرًا من البذاءة في بعض ألعاب الكمبيوتر، لكن العالم الحقيقي أشنع، أقسى، أكثر وحشية. الأمر لا يتطلب سوى النزول من سلَّم هذه البناية لإثبات ذلك، أو الخروج إلى الشارع أو ركوب المترو.

عالمي ليس أكثر من مجرد ألعاب، ألعاب بريئة.

***

كيف يمكن التصدي لعدوٍّ يهاجم بلا رحمة، بمكرٍ وفي الخفاء؟ كيف يمكن الاحتماء منه؟ وأين يمكن الاختباء؟ إلى متى سنتحمَّل هجمات غُزاة يأتون مرة من الشمال، وأخرى من أقصى الشرق؟ ما الذنب الذي اقترفناه، في نظر الله، لكي يكون بلاؤنا بهذه الشدة؟ ولماذا لا يرسل الله، كما وعدَنا، إعصارًا من الغضب يقضي نهائيًّا على الكفار الذين يستفزوننا ويعتدون علينا؟ ماذا سيحلُّ بنا، والأهم ماذا سيحلُّ بأبنائنا...؟

كان حزرات باناراس يتجوَّل في أنحاء القرية، وزوجته ديبا تتأبط ذراعه، بحثًا عن دروبٍ رحيمة بركبته الموجوعة وبعينَي زوجته شبه الضريرتين. الآن بعدما انفصل عن (مجلس الشيوخ) أصبح لديه المزيد من الوقت لنفسه ولزوجته، وكان كلاهما يحب النزول بعد إغلاق الدكان إلى سهلٍ خاوٍ حيث يستطيعان مشاهدة الغروب. قبل سنوات عديدة، اعتادت مجموعات من الفتيات، وهي من بينهن، أن تنتظر هنالك مجموعات من الشبان، وهو من بينهم. حدث ذلك منذ وقتٍ طويل، قبل الحرب الأولى، التي ليست سوى واحدة من حروب عدة.

قلَّما تحدَّثا؛ لم يعودا في حاجة إلى ذلك لأنهما قالا كل شيء تقريبًا، لكن توطدت بينهما أواصر المودة والاحترام التي عهد بها الرسول إلى الرجل وزوجته.

وبينما يشاهد السماء الصافية والشمس الموشكة على الغروب فوق الجبال البعيدة، ظل حزرات يكرر، كأنه نوعٌ من الابتهال: "لماذا يهاجمنا العدو بهذه الوحشية؟ مَن أولئك الذين يمتطون هذه الآلات الفتاكة؟ متى سيطردهم الله من أراضينا؟ ماذا سيحلُّ بنا...؟".

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

نبذة عن المترجمة

أسماء جمال عبد الناصر

كاتبة ومترجمة مصرية. درست اللغة والآداب الناطقة بالإسبانية بكلية الآداب جامعة القاهرة وكلية اللغويات بجامعة سلامنكا. عملت بتدريس اللغة الإسبانية بكلية اللغة والإعلام، الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا والنقل البحري. تعمل الآن على أطروحة الدكتوراه في جامعة أنتيوكيا بكولومبيا. شاركت في ترجمة الأنطولوجيا الشِعرية "بالمختصر المفيد - خوسيه إيميليو باتشيكو" (معهد ثيربانتس ببيروت 2021)، وفي كتابة المجموعة القصصية "حتى فساتيني" (دار المرايا 2022). كما ترجمت رواية "في غياب بلانكا" لأنطونيو مونيوث مولينا (سرد 2022)، ونشرت ديوانها الأول "مرفوضة للصالح العام" (دار المرايا 2024).

البريد الإلكتروني:

asmaa.gamal88@gmail.com

نبذة عن المترجم

محمد مهدي

مترجم مصري ومعيد بقسم اللغة الإسبانية بكلية الألسن، جامعة كفر الشيخ. نشر نصوصًا مترجمة في بعض المواقع والمجلات الإلكترونية والورقية العربية. وصل إلى القائمة القصيرة في "المسابقة الأولى لترجمة الرواية المكسيكية" التي أقيمت بالتعاون بين المركز القومي للترجمة والسفارة المكسيكية في مصر، كما فاز بجائزة مسابقة "كشّاف المترجمين" لترجمة القصة القصيرة فرع اللغة الإسبانية، التي أقيمت بالتعاون بين المركز القومي للترجمة والهيئة العامة لقصور الثقافة. صدرت له ترجمة رواية "بين المكسورين" للمكسيكية ألاييدي بينتورا ميدينا (دار عصير الكتب 2023)، ورواية "الغيوم" للأرجنتيني خوان خوسيه ساير (دار عصير الكتب 2024).

البريد الإلكتروني:

momahdy215@gmail.com

ألعاب بريئة

في العالم الحقيقي، سِباستيان -دون شدة على النون- هو فتى عادي يعيش مع أمه ويذهب إلى المدرسة كل يوم، لكن في العالم الافتراضي يعرفونه باسم «القاتل»، فهو خبير في الأسلحة المتطورة ويتحكَّم في أسرابٍ من طائرات «الدرونز»، بخلاف أنه يتقاضى أجرًا على ذلك.

يبدو الأمر في ظاهره أنهما عالمان مختلفان لا يتقاطعان، واقعان مستقلَّان يستطيع سِباستيان أن يفصل بينهما، لكن الحدود بين الواقعي والافتراضي قد تكون ضبابية أحيانًا. تُرى هل يمكن لدماء الضحايا في لعبة على شاشة أن تلطخ يد اللاعب الذي يجلس أمامها؟

تصميم الغلاف: عمرو بكر

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحروسة

ISBN 978-977-313-975-9